أبطال الربيع

رحلة

إلى

تأليف

سعد هاشم

« من كتاب فضيلة الاستاذ الكبير الشيخ محمود
أبو العيون إلى المؤلف فى كتابه « أرواح حائرة » .

ولدى العزيز السيد « سعد حامد »

قرأت يا بنى مؤلفك — أرواح حائرة — فرأيت فى قلمك البارع آيات البيان ، وإن أحلام الشباب فى مثل تلك السن التى تعيش فيها ، وإن أطياف المنى التى تمر مر السحاب فى تلك الحياة الحارة المتفجرة ، لتبرز من قلمك فى صورة رائعة باهرة . . .

متعك الله بتلك الحياة الحالمة الساحرة ، فتهدينا فى غضونها صوراً عبقرية مجملة ، وأطال فى عمرك حتى تخرج لنا صوراً أخرى لحقائق الحياة . . .

المخلص

محمود أبو العيون

إلى التي أحبتني . . . وحطمتني . . .

وأحببتها ما وسعت روحي أن تحب . . . ! !

س . ج

أجيال للبيع

نحن الآن فى حى العاهرات . . . الساعة التاسعة مساءً ، فى مقهى صغير خافت الضوء . . . .

أوه . . . معذرة . . ! ! فقد كان من الأجدر بى أن أعرّف القارىء العزيز بموضع هذا المكان ، فقد لاتكون له به معرفه ، ويظن أننا نسخر منه أو نختلق الأمكنة والحوادث . . . ! !

إذا وجدت نفسك فى ميدان (باب الحديد) ، وهو ذلك الميدان الفسيح الرائع الذى يجثم فيه تمثال (نهضة مصر) ويلقى كل زائر تحمله إلى القاهرة القطارات الآتية من الشمال والجنوب . . . إذا وقفت فى ظل تمثال (النهضة) بدا لك من بعيد طريق جياش مضطرب صاخب ، هذا الطريق هو (شارع كلوت بك) . . . فإذا انحدرت فيه وسرت قليلا رأيت عن يمينك وشمالك حواجز خشبيه عالية رمادية اللون ، تتأرجح عليها بخط كتب عليها (Out of Bounds) . . . فإذا كنت رجلا خيراً نقىّ النفس أطرقت ثم أسرعت الخطى لتعبر هذا المكان ، وإذا كنت رجلا عربيداً فاسق النفس فانك قد تبطىء الخطى لترسل الطرف من خلال فرجة ضيقة لترى ما يجثم خلف هذا الحاجز ، أو قد تلوذ بالحائط ثم تتلفت خلفك لحظة خاطفة ، وتمضى ترتقى الدرج ، ولا تلبث أن تتوارى خلف هذا الحاجز الخشبى الضخم الذى سرعان ما يطويك فى أعماقه الغامضه . . .

فاذا مضيت فى هذا الطريق المتعرج الضيق الذى يلقاك بعد أن تعبر الحاجز الخشبى رأيت عن يمينك وشمالك خليطاً غريباً من الرجال والنساء . . . رجال متناثرين على مقاعد المقاهى ، بعضهم يدخن اللفائف وبعضهم يجرع أقداح القهوة ، وبعضهم يحدق

فى النساء ، وقد ارتسمت على وجوههم جميعاً مشاعر مبهمة غامضة من القلق والحيرة واللهفة . . . ونساء جالسات أو واقفات فى رحبات البيوت ، عاريات الأذرع والسيقان تنعكس عليهن أضواء المصابيح ، يرسلن ضحكاتهن فى تبذل رخيص ، وقد طلين وجوههن الشاحبة المتعبة بالألوان الصارخة . . .

صدقونى إنى لا أقول إلا الحق . . . إن حى العاهرات هذا فى القاهرة . . . كما وصفته لكم تماماً . . ! ! وليس فى مدينة أخرى . . . إنه فى وسط المدينة المجيدة ، كعبة الشرق الناهض . . قاهرة المعز . . . مهد القباب والمآذن . . . !!

والآن لنترك هذا الاستطراد الممل . . . ! ! أرجو المعذرة أيها القارىء العزيز ، ولنعد معاً إلى ذلك المقهى الصغير ، الخافت الضوء ، حيث وقعت حوادث هذه القصة . . .

. . . .

إذا ولجنا هذا المقهى الصغير ، وجلسنا معاً إلى مائدة من موائده الخشبية ، فسوف يأتى الينا (جمعه) خادم المقهى وهو يرحب بنا . . . وقد نطلب اليه أن يقدم الينا قدحين من القهوة ، فنحن نؤثر هذا الشراب الذى ينبه أعصابنا ، فيتسنى لنا أن نقضى شطراً طويلا من الليل ، يقظين منتبهين لما يدور حولنا . . . لا يعبث بنا وهن السكرى ، فيصرفنا مبكرين . . .

أما (جمعه) هذا فهو مدير هذا المقهى الصغير ، يقابل الزبائن ويقدم اليهم ما يطلبون ، فإن صاحب المقهى (المعلم حسين) مشغول دائما بادارة بيوته التى يملكها فى هذا الحى . . إن له ثلاثة بيوت فيها أكثر من ثلاثين امرأة . . . وهو فى الحق يديرها إدارة حازمة دقيقة ، وتبدو نتيجة هذه الادارة الحازمة فى الخواتم الذهبية والماسية التى ترصع أصابعه ، والتى تزداد دائما ، وفى ساعته الذهبية وثيابه الغالية ، وفى عشرات (الغوايش) الذهبية التى تلوح فى ذراعى زوجته (الحاجة) . . . إن (المعلم حسين) مخلص فى عمله أيما اخلاص . ! ! إنه يقدم لزبائنه وزواره أجمل نساء الحى . . . ويشرف بنفسه على

بيوته ، فيطوف بها بين ساعة وأخرى ، ثم يجلس أخيراً أمام أحداها ، حتى إذا جاء آخر الليل ، وانصرف الزائرون ، أقبل اتباعه يحملون اليه ما جمعوا فى ليلتهم من نقود . . . ! !

ولما كان هذا المجهود يقتضى من (المعلم حسين) أن ينفق أغلب ساعاته بعيداً عن مقهاه ، فقد وكل إدارتها إلى (جمعه) . . . وجمعه هذا شاب مخنث . . يرقق صوته دائماً فى حديثه ، ويضحك ضحكات ناعمة ، ويخطر فى مشيته كالنساء ، وهو كسيده مخلص فى عمله ، فهو يرعى المقهى ، ويقوم بالدعاية للمنازل التى يديرها (المعلم) ، فيتحدث إلى الزبائن عن المرأة التى أحضرها (المعلم) من (بور سعيد) ، والأخرى التى جاءت من (المنصورة) . . . ويصف لهم خفة روح (نعيمه) ، وحلاوة عيون (سميره) ، وجسد (زوزو) البدين الدافىء . . . ! !

ولكن رغم اخلاصه هذا ، فهو لا ينسى نفسه أحياناً ، فيختلس بعضاً من إيراد المقهى ، ويختلى بين حين وحين بأحد الجنود فى بيت من بيوت (المعلم) فى ساعة متأخرة من الليل . . . ؟ ! !

. . .

إذا تطلعنا حولنا نرقب رواد المقهى ، رأينا شابين فى ربيع العمر ، يدخنان اللفائف ويتحدثان فى خفوت ، وهما ينقلان بصريهما بين النساء ، كأنهما يتجاذبان الرأى فى امرأة الليلة المنشودة ، ويبدو من مظهرهما أنهما طالبان من طلاب المدارس الثانوية ، ورجلاً عجوزاً يبدو كأنه من كبار الموظفين المتقاعدين ، وهو يتحدث إلى امرأة لها حظ من جمال ، ويقدم اليها الفاكهة وهى تدل عليه وتتحدث اليه فى كبرياء . . ورجال متناثرين على المقاعد أمام المقهى يرقبون المارة ويتطلعون إلى النساء . . . حتى إذا ما شربنا القهوة ، وأقبل (جمعه) باسما يحمل الأقداح الفارغة ، رأينا هذه المرأة التى كانت تتحدث إلى هذا الكهل المتصابى منذ قليل تقبل نحو (جمعه) وتقول له :

— هو ماجاش النهارده . . . ؟

فيجيب جمعه : هو قال لى امبارح إنه رايح سينما من ٦ لـ ٩ وجاى بعد كده ... فتتركه ... وتمضى ، فتغيب فى البيت المواجه للمقهى ...

• • •

والآن أيها القارىء ... يارفيق فى هذه الرحلة الغامضة ، إنى أشعر انك قدبدأت تضيق ذرعاً بهذه الرموز ... ولكن معذرة مرة أخرى ... !!

عن هذا المقهى ، والبيت المواجه ، وهذه المرأة التى غابت فى البيت منذ لحظة ، وهذا الكهل المتصابى الذى كان يتحدث اليها ، وهـــذا الرجل الغائب الذى مضى للسينما ولا يلبث أن يعود ، سنتحدث فهم أبطال قصتنا ومدار حديثنا ...

• • •

أما المقهى والبيت المواجه فهما خشبة المسرح التى حدثت عليها فصول المأساة ... وأما (جمعه) (والمعلم حسين) ورواد المقهى ونساء الحى فهم نكرات ... ! ؟ النكرات التى لا بد أن تظهر فى كل مسرحية ... سواء كانت على خشبة المسرح أو على مسرح الحيـاة ...

أما أبطال القصة ، فهم كما أسلفنا ... هذه المرأة الجميلة التى غابت فى البيت منذ لحظة وتدعى (فوزيه) ، وهى امرأة فى الثلاثين من عمرها تقريباً ، رشيقة الجسد ، فاتنة المحيا ، سمراء ، واسعة العينين ، يتهافت عليها زائرو الحى وعشاقه ... فى غرفتها يسكب الكهول شطراً مما يتقاضوه من معاش ضئيل ، ويمنحها التلاميذ ما أدخروه فى اسبوعهم من نقود ، ويقدم اليها العمال جزءاً من رواتبهم ... يزورها الكهول فى أول كل شهر دائما ! ؟ ويمر عليها التلاميذ فى نهاية كل اسبوع ، وتجىء اليها أفواج العمال كل خمسة عشرة يوماً ، كما يقضى صرف الأجور لعمال اليومية ! !

وكلهم يجدون عندها ... السعادة ... والمتعة ...

إنها إمرأة تبيع الجسد ... لمن يدفع الثمن ... إنها واحدة من أولئك المئات اللاتى

يفعلن مثلها ... إنها تحترف مهنة تعترف بها الحكومة ... !! إنها كالموظف أو العامل تحمل تذكرة تحقيق الشخصية باسمها وصورتها ، مختومة بختم الدولة وموقعاً عليها من ذوى الشأن ... !!

إنها تظن أنها الرابحة لأن الدراهم تسيل من بين أناملها دائماً ... وزائرها يظن أنه هو الرابح لأنه يشترى جسداً آدمياً ... ببضعة قروش تافهة ...

ترى من هو الرابح فى هذه المهزلة الإنسانية المضحكة ... !!

أما هذا الكهل الذى كان يتحدث إليها منذ قليل فيدعى (عباس بك) ، وهو موظف متقاعد له أسرة ... زوجة وأولاد ... يتقاضى معاشاً محترماً فى كل شهر ، يهب أسرته المسكينة النذر اليسير منه ، ويحتفظ بالباقى لنفسه ، فهو عربيد ماجن مستهتر ، يريد أن ينعم بالأعوام الباقية له فى جبل الحياة ... ولذلك فهو يقضى أيامه ولياليه بين الحانات وهذا الحى ... وهو عاشق (لفوزية) مفتون بها ... يتبعها كظلها ... فأينما وجدت تراه ... وهو لا يريد لها طلباً ، بل يهبها كل ما تطلب من نقود وهدايا ... وهى تزدريه ، وتدل عليه ، وتثيه بشبابها الغض على شيخوخته الفانية ...

أما الرجل الذى مضى الى السينما ولا يلبث أن يعود ، فهو عامل من سائقى السيارات ، من رواد الحى الدائمين ... رأته فوزيه ... فأحبته ... رأت فى جسده القوى وخشونة طباعه وفظاظته درعاً يحميها ... ويذود عنها ...

وكان يحضر إلى المقهى بين حين وحين ، فكانت تختار أمامه ... تلفت نظره ، وتسترعى انتباهه ، وأوعزت الى (جمعه) أن يحدثه عنها ...

وجاء (جمعه) ليقول لها أن (عبد الحميد) يبعث اليها بهذا القدح من الشاى ... وشربت الشاى باسمة ، ثم أقبلت تشكر صاحبه ... وكانت صداقة ...

صداقه بدأت هادئة ... وديعة ... ثم انقلبت إلى صلة شائقة عجيبة ، ولكنها صلة دائمة لا تنقطع ... يقسو عليها ... ويضربها ... فلا تتذمر أو تثور ... يصفعها

ويرميها بالسباب ، ولكنها لاتستطيع عنه بعداً بل تهب دائماً ما لديها من مال . . . ! !
إن كثيراً من نقود زوارها . . . ودراهم (عباس بك) وهداياه تمضي دائماً إلى مصيرها المحتوم . . . إلى يد (عبد الحميد) . . . ! !

. . .

كيف جمع القدر الساخر بين هؤلاء الثلاثة . . . ؟ !

إذا قفلنا راجعين الى الوراء خمسة أعوام . . . رأينا شاباً غض السن في العشرين من عمره تقريباً ، يجلس الى مائدة في المقهى وإلى جواره (فوزية) وهما يمزحان . . . ويضحكان . . .

كان هذا الفتى من زوار هذه المرأة . . . رآها ذات يوم وهو في صحبة من رفاقه الطلبة . . . فأعجبته . . . وفتنته . . . فأقبل لزيارتها ، ومن يومها وهو لا ينقطع عن المجيء اليها . . .

كان يختلس النقود من أسرته . . . أو يسرق كتب الطلبه فيبيعها كي يستطيع أن يأتي بالنقود . . . كان فتى طائشاً غض التجارب . . . وكانت هذه المرأة حرباً على أعصابه . . .

وتغيرت سيرته . . . وبدأ يغيب عن بيته كثيراً . . . ويختلق الأعذار . . .

وأدركت أسرته أن في الأمر شيئاً ، ولكنها سكتت كما تسكت كل أسرة دائماً . . . ! !

وذات يوم رآه أحد معارفه ، فأسر الى أبيه الأمر . . . وثار الأب وسخط ، ومضى بنفسه ليرى ويتأكد . . وذهب إلى المقهى وعرف أن ابنه يتردد عليه ، وإن له لصلة بامرأة . . .

ورأى المرأة . . . رأى (فوزية) بجمالها وفتنتها وسحر عينيها . . .

وأدرك أنها حيلة . . . مشتهاة . . . وأنها جديرة بأن يقضي المرء معها ليلة . . .

كان هذا الرجل هو . . (عباس بك) ! ! !

. . .

والآن يارفيقى القارىء . . . لقد مضى هزيع طويل من الليل ، وبدأت المقاهى تطفىء أنوارها ، ومضت النساء تنصرف إلى بيوتهن ، وانقطعت أصوات الضجيج : وخيمت الظلمة والصمت على السبل المتعرجة . . كأن أشباح الخطيئة السوداء تطوف بالمكان . . .

وها هى (فوزية) تنصرف وقد تعلقت بذراع (عبد الحميد) . . وها هو (عباس بك) يتأهب للعودة إلى بيته وحيداً يستند إلى عصاه الأنيقة . . . ! !

وها هو (جمعه) يتطلع عن يمينه وشماله كأنما يبحث عن شىء . . . ؟ ! وهو يحمل المقاعد إلى داخل المقهى . . . ! وإنى أدرك أنك تريد أن تنصرف أيضاً . . . فإنك لم تتعود السهر ، وأدرك أيضا أن بك شغفاً يلوح من عينيك . . . إنك تريد أن تسمع أكثر مما سمعت . . . !

إذن فاسمع . . . لقد مست عصا التوبة رداء الابن . . . تحت تهديد الأب وسخطه فاء الفتى إلى نفسه ، ثم أدرك ضلاله فاهتدى . . .

لقد اهتدى الابن . . . . وغوى الأب . . . ! !

أضواء عيد الميلاد

كان يغادر الحي الفقير المظلم . ونفسه مفعمة بالأمل . . . الأمل فى أن يوفق فى ليلته ويعود من رحلته الليلية وهو راض عما أصاب من نجاح وتوفيق . . . !

كانت الليلة عيد الميلاد ، وقد سمع ذلك من أترابه من قبل ، وكان ينتظرها فى لهفة، فإنها ليلة قلما تجيء ليلة مثلها طيلة العام ، تبدو فيها المدينة الصاخبة المزدحمة وقد ازدادت زحاماً وصخباً كأن الناس جميعاً قد هجروا دورهم وفروا إلى الطرقات يجوبونها ويقضون الليلة ساهرين . . . !

إن المدينة تظل هذه الليلة يقظة حتى ساعة متأخرة من الليل . . تموج طرقاتها بأشتات من البشر . . من كل لون . . . يتسكعون فى الطرقات ، ويملأون الحانات ، يمرحون ويغنون ويرقصون . . .

وكان هذا الصبي الذى غادر الحي الفقير المظلم ونفسه مفعمة بالأمل . . . كان يأمل أن يصيبه حظاً من عطف هؤلاء البشر السعداء . . . فى ليلة العيد . . .

إنه أحد أولئك الصبية المشردين الذين يجوبون الطرقات . . . ليل نهار . . . إنه أحد الآدميين الذين أرغمتهم الطبيعة على أن يولدوا من آباء فقراء ، فرأوا النور فى الأكواخ والحجرات المظلمة الرطبة . . . إنه ضحكة ساخرة من ضحكات الطبيعة المبهمة . . . نفاية بشرية تسلك طريقها المحتوم الذى رسمته لها السماء لحكمة خفية . . . !

إنه أحد أولئك الذين نراهم كثيراً ، كأنهم الكلاب الضالة ، ولا نكلف أنفسنا السؤال . . . من أين جاءوا . . . ؟ وكيف كان مصيرهم هذا . . . ؟

. . .

من أين جاء هذا الصبي . . . وكيف قذفت به الأقدار الى هذه المدينة . . . ؟

لقد جاء من أحد قرى الريف ، في صحبة أبيه وأمه . . . جاء أبوه مع مَنْ جاء من الرجال الذين ارتحلوا إلى المدينة، حين أعلنت الحرب ، ليعملوا في الجيش الإنجليزي . !! لقد ضاق الرجل بذلك الأجر الضئيل الذي كان يتقاضاه من عمله في الحقل . . . تمرد على الفقر والجوع والبرد ، فارتحل مع أسرته الصغيرة الى المدينة . . . بحثاً عن المال الذي يهيء له حياة طيبة ويقيه عضة الجوع ولذعة البرد . . .

وفي حجرة ضيقة مظلمة في بيت متهدم الدرج في حي فقير خامل أودع الرجل زوجه وابنه ، وكان يمضي الى عمله كل صباح ثم يعود في الغروب وهو راضٍ قرير العين . . .

ومرت الأيام . . . والرجل وزوجه وأبنه يعيشون في هناءة ، الى أن كان ذات يوم إذ أقبل مَنْ يقول للمرأة أن زوجها قد زلت قدمه فسقط تحت صندوقٍ ثقيلٍ كان يحمله ، فأورده موارد الهلاك . . .

وفجأة وجدت المرأة نفسها وحيدة . . . غريبة . . . في مدينة فسيحة مزدحمة . . . لاسند لها سوى ابنها البالغ من العمر الخامسة عشرة عاماً . . .

وأفاقت من الصدمة القاسية ، لتجابه صدمة أشد منها قسوة وهولا . . . من أين تعيش ، وأين لها المال الذي يقيها وأبنها الموت جوعاً . . . ؟

وتلفتت حولها تبحث عمن تلوذ به . . . ولكنها لم تجد أحداً . . .

وبحثت عن عمل ولكنها لم توفق . . . وأرسلت ابنها ليعمل صبياً عند الحلاق فرفض أن يعطيه أجراً لأنه لم يتعلم أصول الصنعة بعد . . . فأرسلته الى الجزمجي والنجار فقالوا مثلما قال الأول . . . ولما تعبت من البحث له عن عمل تركته ينطلق الى الطرقات . . . جائعاً . . . مشرداً . . .

ومضى أول يوم . . . وأتى مع الغروب يحمل اليها طعاماً ونقوداً . . .

ومن يومها وهو يمضي كل يوم . . . ليأتي مع المساء أو بعد أن ينقضي شطراً من الليل ، وهو يحمل إليها الطعام والنقود . . .

وكانت المسكينة تألم . . . ولكن قسوة الجوع كانت أقوى من الألم . . . !

. . .

أخيراً ألفى نفسه في طرقات المدينة ، وهالته الأضواء الساطعة والضجيج الصاخب العربيد ، وأحس بعيونه تكاد تعشى من قوة الضوء . . .

وانطلق يسعى بين البشر السعداء من ذوى الثياب الغالية ، يتطلع اليهم ويحدق فيهم كأنه يود لو يستطيع أن يختلس شيئاً من هنائهم وطرفاً من حظهم السعيد الذى منحهم القدر إياه . . . ومضى يتطلع مثلهم الى وجهات الحوانيت الزجاجية المضيئة . . . أليس إنساناً مثلهم ، وله أن يتطلع إلى هـــذه المعروضات البديعة المنسقة تحت الأضواء الخلابة الباهرة . . . هذه المعروضات من ثياب وحلوى وأطعمة لم يرها يوماً فى الأحلام . . ! !

ومر فى طريقه بمقهى يغصّ بروّاده . . . وجعل يتسكع أمامه يرقب هؤلاء المحظوظين الذين يضحكون ويأكلون ويشربون الخمر ، ويتطلعون إلى النساء العابرات وهم يهمسون بكلمات الإعجاب والثناء . . ! ومرت به امرأة مترفة ترفل فى ثياب غالية ، تجر خلفها كلباً مدللا ناصع البياض . فأحس غصة فى حلقه حين ذكر أن الرعاية التى يناله هذا الكلب تفوق كثيراً . . . كثيراً جداً . . الرعاية التى يناله آدمىّ مثله . . . ولعل الطعام الذى يأكله هذا الكلب يفوق طعامه هو . . . ! !

وانحنت السيدة لتحمل الكلب ، فإن فرط الزحام يعوقه عن المسير . . .

قال الصبى لنفسه حين رأى السيدة تضم الكلب إلى صدرها : ياليتنى كنت كلباً . . . !

آدمىّ يتمنى أن يصير كلباً . . . ! ! هل كان مبالغاً فى هذه الأمنية . . ؟ كلا . . إن كثيراً من الآدميين من صنف هذا الصبى لا يعيشون حياة مثل حياة هذه الكلاب المنعمة التى تعيش فى القصور . . . فى رعاية السيدات الأنيقات المترفات . . . وفى

مخادعهن وعلى صدورهن . . . ! !

وجرفه تيار المارة ، فمضى إلى غايته . . . وشرع يلاحق العابرين ويرفع اليهم يده متوسلاً سائلاً إياهم أن يهبوه شيئاً من إحسانهم، ولكن توسلاته ذهبت أدراج الرياح..!

إن الليلة ليلة الهناء والسعادة فمن هذا الذى يطل فى وجه الشقاء . . ؟ ! إن السعداء يضنون بلحظة من سعادتهم أن تبددها صورة من صور الأسى ، فهم يغرقون فى لجة الهناء غير شاعرين بهذه الصور الحية من الشقاء الآدمى التى تتحرك إلى جوارهم . . .

أنت يا هذا رويدك رويدك . . . لاتضنى نفسك ولا ترهق قدميك . . . إن هؤلاء الحمقى لايسمعون نداءك . . . إن ضجيج أصوات الموسيقى الصاخبة وصوت تقارع الكؤوس يصم أسماعهم ، وإن مرأى النساء الجميلات والعربات الفاخرة يعمى أبصارهم عن رؤية أمثالك المساكين . . ! !

ومضى الصبى من طريق إلى طريق وسط الزحام البشرى الهائل . . . مضى لايشعر به أحد ولا يحس بكيانه مخلوق . . . انطلق كأنه حشرة حقيرة قذرة من حشرات الأرض التى تسعى خلال الأوحال والقاذورات وروث البهائم ، لتلقى حتفها أخيراً من أقدام عابرة تطأها فى قسوة . . . !

كان المسكين يسعى وراء لقمة العيش . . . إنه يحس بالجوع يفرى أحشاءه فى هذه الليلة التى فرشت فيها الموائد بما لذ وطاب من الطعام الدسم الدافىء والحلوى الشهية . .

إن الأمل ليدفعه ليكافح . . . إنه لا يستطيع أن يعود فارغ اليدين ، فإن الحظ قد تنكر له منذ أيام ، فكان يعود إلى حجرته خاوى الوفاض إلا من كسرة خبز لم تكن لتقيه وأمه لفحة الجوع . . . والليلة . . . إن أمه لتنتظره فى ترقب . . . إنها تعرف أن المدينة الليلة ترتدى ثياب العرس وأن الجنود الإنجليز يحتفلون بعيدهم ، فهى ترجو أن يوفق فتاها فى أن يحمل إليها ما يسكت هذا النداء الثائر الذى تصرخ به المعدة الخاوية المتمردة . . .

ويقف الصبي يتطلع إلى مجموعة من الجنود الإنجليز ، وهم يتناولون طعامهم ويجرعون كؤوسهم ، ضاحكين صاخبين ، في ناحية من مقهى فسيح ... شرذمة من اللصوص أخرى ... من سارق طعام النمر الضعيف ... من أبناء أمة لم يرفعها إلى مصاف الأمم الراقية نبوغ أو عبقرية أو عراقة في الأصل ، إنما رفعتها صفاقة ونفاق ومخاتلة ...

وما عتم أن دنا منهم ، وفي قلبه رجاء ، وفي نفسه أمل ، واقترب من أحدهم وهمس في رجل (بقشيش ياجورج) ...

وأحس الصبي بشيء من الفرح حين أجابه الجندي قائلاً في عربية محطمة (خسد بقشيش) ... وأفاق الصبي لنفسه على ركلة من قدم الجندي ألقته بعيداً ... !!

وغادر الصبي المقهى ، وضحكات الجندي تلاحقه كأنها ضحكة سخرية من القدر ... !

أي فشل مروع يقاسيه هذه الليلة .. ؟ هل يكتفي بما أصاب من خذلان فيقفل عائداً ... كلا وألف كلا .. ! لقد علمته فلسفة التشرد أن يلح ويلح حتى يحس بنفسه يتضاءل وبريقه يخف وباقدامه تكاد تتهاوى وأخيراً قد يوفق ..

ومضى يجر قدميه ، وقد آلمته كثيراً ركلة الجندي بحذائه الضخم الثقيل ، واجتمع عليه ألم الركلة إلى ألم الجوع ولذعة البرد الذي كان يتسلل الى جسده من أسماله البالية كأنه ضربات السياط ... لم يكن ليستطيع أبداً أن يعود كما جاء .. فارغ اليدين .. حتى ولا كسرة من الخبز يدفع بها عن نفسه قسوة الجوع اللعين .. إنه كان يود ساعتها لو يستطيع أن يفعل أي شيء لينال رغيفاً من الخبز ... إنه كان يود لو يقبل أقدام أي إنسان ليهبه حظاً من طعام ، حتى ذلك الجندي الذي ركله كان مستعداً لكي يجلس عند قدميه فيقبل حذائه نظير لقمة من هذا الطعام الشهي الذي يبدو أمامه على المائدة الصغيرة ذات الغطاء الأبيض الناصع ... من هذا الطعام الذي لم ولن يذوقه يوماً ... طيلة حياته ... !!

وفجأة خطرت له فكرة ... فكرة استهوته كثيراً بعد يأسه المروع وفشله المرير

لقد سمع رجلا يتحدث إلى رفيقه ، وبيده حافظة نقوده المفعمة بأوراق النقد . . . كان الرجل يقول لصاحبه وهو يشير إلى الحافظة :

— هيا ياعزيزى . . . إن النقود كثيرة وموجودة ، وسوف نقضى ليلة حمراء نادرة . . . هيا بنا . . . !

ووضع الرجل الحافظة فى جيب سرواله الخلفى . . .

وتبعهما الغلام ، وقد تعلقت عينيه بالرجل الثرى ، كأنه الكنز الموعود وهبته إياه الطبيعة البخيلة . . . كانت أول مرة خطرت له هذه الفكرة . . . ! ؟

وامتدت يدالصبى تبحث عن حافظة النقود . . . وفى اللحظة نفسها امتدت يدالرجل الثرى لتقبض على ذراع الصبى كأنها كلابة من حديد . . .

وما عتمت أن امتدت يد أخرى ، لتستلم الصبى وتضغط على ذراعه الصغيرة فى عنف ، وانهالت على وجهه الصفعات . . .

كانت يد جندى البوليس الذى مضى به إلى المخفر . . .

. . .

فى تلك الليلة . . . ليلة عيد الميلاد . . . كانت المدينة تموج بالأضواء وترقص وتعربد . . .

وفى الحى الفقير المظلم الهادىء . . . كانت الأم تنتظر . . . وتنتظر . . . !

الشيء الجميل

صورة بديعة جذابة في إطار مشوه . . . هكذا كانت حياته . . . !

أديب شاب مغمور ، لم يمنحه القدر بعد ذيوع الصيت . . . وهبته الطبيعة في سخاء كل المحاسن البشرية . . . قوام فارع ممشوق ووجه فاتن ونبوغ مبكر وشعور دافق فياض ، ولكنها سلبته شيئاً واحداً . سلبته المال الذي يستطيع به أن يسلك طريقه وسط زحام الآدميين . . .

لقد اصطدمت عليه عناصر عجيبة من القدر . فلم يوفق في حياته أبي كان يأملها . . لم يستكمل تعليمه إذ وقف المال عقبة في سبيل إتمامه دراسته . وهكذا وجد نفسه فجأة في منتصف الطريق : ضالاً حائراً . . . وما عتمت هذه الحيرة أن أسلمته إلى مكتب صغير في إدارة إحدى الصحف الأسبوعية ، يعمل محرراً بها ، يصوغ الكلمات ويبيع أفكاره لقاء جنيهات يتقاضاها في كل شهر . . .

كان يرجو أن يصير يوماً ما شيئاً مذكوراً . . . ! رجل له شأن ومكانة . . . كان يحلم بالمجد والخلود ، فأنفق أيامه ولياليه سعياً في الوصول إلى هدفه المرتقب . . . شطراً من نهاره في إدارة الصحيفة وشطراً من ليله بين كتبه وأوراقه . . . يقرأ حتى يرى الكلمات ترتعش أمام ناظريه وتبدو صفحة الكتاب باهتة كأن الضباب يغشاها ، ويكتب أحياناً حتى يضنى القلم أصابعه ، فيلقيه جانباً ويقوم إلى فراشه يلتمس في الهجوع راحة الفكر والجسد . . .

كان يعيش في أسرته وحيداً . . . في غرفته دائماً يخلو إلى نفسه وينقطع إلى أفكاره ، حتى خطابه كانوا يحملونه إليه في غرفته ، ولم يكن له من الصحاب أحد إلا ما تقضي به آداب اللياقة من تحية عابرة لجار أو زميل . . . كان يعيش منطوياً على نفسه . . .

كان يريد أن يصل . . . أن يبلغ الغاية البعيدة التي تلوح لعينيه في نهايتها أضواء المجد الوهاجة . . . كان يؤمن بأن العبقرية جهاد ومشقة وأن الأفكار لا تستيقظ إلا في السكون . . . في الصمت . . . في العزلة . . .

إن فكره مفعم بآلاف الخواطر التي لم يكتبها أحد من قبل ، وإن صدره ليجيش بآلاف العواطف البشرية الكامنة . . . فلماذا لا يصير يوماً رجلاً ذا شأن . . .

وكانت أيام حياته تنصرم على هذه الوتيرة . . . أيام متشابهة . . . قاحلة . . . جرداء . . . إلى أن كان ذات يوم . . .

* * *

كان عصر يوم من أيام الشتاء . . . وكان يمضي في طريق من طرقات «حدائق القبة» ذلك الحي الأرستقراطي الهادىء . . . كان يمضي وئيد الخطى شارداً رغم رذاذ المطر الذي لم ينقطع منذ الصباح ، والذي جعل الطرقات تلتمع بوميض أخاذ ، فتبدو كأنها صفحة بحيرة هادئة ، ترقص على صفحتها ظلال الأشجار . . .

كان هذا الحي الشاعري الصامت يوقظ خياله ، ومن طرقاته الظليلة الساكنة وقصوره الفخمة وعبق أجوائه كان يستوحي تلك الأفكار التي يقدمها لقرائه كل أسبوع ، فقد كان يسكن على مقربة منه ، في حي فقير خامل ، وكان ينطلق حين يحس بأنفاسه تختنق من غبار الطرقات وضجة الأطفال وسخب النساء إلى ذلك الحي المترف المترفع ليعيش لحظات في ظل الترف والنعمة والمال ، والمحرومين يعيشون مع الظلال دائماً . . . !

كان يمضي في الطرقات الساكنة حالماً ، كأنه يمشي وهو نائم . . . يسلمه طريق إلى طريق . . . كانت الطرقات خالية من السابلة في هذا الجو المطير ، وقد بدا الحي الهادىء تحت ضوء السماء الملبدة بالغيوم كأنه هاجع في منتصف ليلة خريف . . . وكان السكون شاملاً حتى لم يكن ليسمع إلا وقع خطواته وهي تهشم أوراق الشجر

البالغة النساطة على أرض الطريق . . . وعلى صوت أقدامه الرتيبة كانت خواطره تطوف بالقصور الفخمة التي كانت الغاية في أمنيات الأشجار الضخمة . . .

كان يتأمل حدائق تلك القصور ، حيث تفننت يد البستاني الماهر في تنسيقها أبدع تنسيق . . كان خياله يطوف بأشجار الورد العبقة وأشجار الياسمين المتضوعة ، وينفذ من تحت خمائل الكروم ليرقى الدرجات الرخامية الناصعة وهو يتطلع إلى النوافذ وقد أسدلت عليها ستائر حريرية ومخملية موشاة تهمس بالترف الباهظ الذي يعيش فيه الآدميين المحظوظين . . . ثم يطوف هـــذا الخيال بالردهات والغرفات المفعمة بالأثاث الفاخر الثمين ، المفروشة بالسجاد النادر السميك ، المتضوعة بعبير العطور الغالية التي تفوح من ثياب الحسناوات ساكناتها ومن أنفاسهن العبقة . . . ! !

ثم يعود ليهبط الدرجات في وجل ، فيمر في طريقه بحظائر العربات الفاخرة . . . عربات (الشيفورليه والباكار والبويك) . . .

المال . . . ! هذه الأكذوبة الضخمة ، هذا الإله المعبود الذي يقدسه ملايين وملايين من البشر ، ومن أجله يفعلون كل شيء ، يبيعون الشرف والكرامة والعرض ما أقدره على العبث بالحقائق الإنسانية الرفيعة والقيم العليا . . .

إنه لا يستشعر الحسد في قلبه نحو هؤلاء القوم . . . إنه قانع بحاله ، راض بمصيره كيفما كان . . . إنه لم يقدر يوماً ما رجلاً من أجل ماله وذهبه ، إنه يحتقر المناصب ويزدري أصحاب المال . . . إنه قد ينحني احتراماً أمام رجل رث الثياب ، مشعث الهيئة ، لأنه رجل شريف لم يفرط يوماً في كرامته وشرفه أو لأنه رجل عصامي شاد مجده بنفسه . . .

وانتقل خاطره من التفكير في المال ليفكر في المرأة . . . في امرأة من هذا النوع الذي يعيش في مثل هذه القصور . . . امرأة تصور الفتنة والأنوثة الصارخة ، بترفها ونعومتها وبضاضتها ، امرأة غير ذلك النـــوع الذي يراه دائماً في جاراته ، أولئك الشاحبات الوجوه ، الضامرات الأجساد ، الذي يوحي مرآهن بالانقباض ويذكر

المرء بالعناء والجهد الذى يقضين فيه أيامهن فى العمل المنزلى الشاق وتربية الأطفال ومتاعب الحياة التى لاقينها فى حياتهن البائسة . . .

لكم كان يشتهى امرأة من هذا النوع الأرستقراطى المترفع . . . إنه كان يحلم بامرأة من هذه الطبقة المترفة . . . امرأة رأت النور فى دفء القصر ونعومة الحرير واهتزت أهداب عينيها على بريق الذهب الوضاء . . . امرأة تمثل (مركب النقص) عنده فيسعى ويسعى لكى يصل إليها . . . ملهمة تشحذ نبوغه المغمور وتوقظ أفكاره الغافية التى تنتظر حنان الأنامل الناعمة . . . لتهدهدها وتوقظها من هجعتها الطويلة . . .

الحب . . . ما أجمل الحب وما أعذبه . . . إنه لم يحب بعد ، لم يلتق بالمجهولة التى يرجوها . . . حقيقة أنه عرف بحكم عمله بعض نساء الوسط المسرحى ، فتيات تافهات مررن بحياته عابرات ولم يخلفن وراءهن إلا ذكرة عابره . . . ذكرى ليال طائشة سيطرت عليها نزوات الشباب الجامح . . .

لقد أحب (دى موسيه) فكتب (اعترافات فى العصر) وأحب (لامارتين) فكتب أبدع كتبه (رافائيل) و (جرازيلا) ونظم أعظم قصائده الخالدة ، وأحب (چيته و هوجو) فأهديا الى البشرية صحائف من العبقرية النادرة . . .

وهو . . . إنه مسكين بعواطفه الجائشة ، مظلوم بشبابه . . . مازال ينتظر على أعتاب القدر مقدم المنشودة . . .

وأفاق لنفسه على صوت (فرامل) سيارة خرجت من الطريق فجأة ، فألقته على الرصيف . . . وسمع صوتاً يقول (إيه انت أعمى . . .)

واستفاق مرة أخرى ، ليقوم من الأرض مبلل الثياب ، موحل اليدين ، وقد نسى ألمه من فرط ثورته على ذلك الباغى الوقح . . .

ورأى باب العربة ينفرج عن وجه فاتن ، من تلك الوجوه الجميلة التى لم يكن ليراها إلا وهى تعبر الرصيف من داخل (شيكوريل) لتغيب فى العربات الأنيقة . . . وأحس

بجلبته يخفف ولم يستطع أن ينطق . . . مالته المفاجأة . .

قالت له وهي تشمله بنظراتها . . .

ـ أرجو أن تكون بخير . . إني آسفة . . . آسفة جداً . . . لقد استدرت مع الطريق فجأة فصدمتك . . . أرجو ألا يكون قد أصابك ضر . . .

قال وهو يحدق في جمالها الصارخ مبهوتاً . . .

ـ إني أنا الآسف ياسيدتي . . . لقد كنت أمضي كالنائم . . . أوه . . . اني أحس بألم شديد في ساقي . . .

ونظرت الى وجهه المتألم وثيابه الملوثة في عطف ثم قالت له وهي تدفعه دفعاً الى داخل العربة : اركب . . . اركب . . .

وجلست الى عجلة القيادة . . . وانطلقت العربة . . .

ألقى نفسه على المقعد الخلفي وهو يمسح بمنديله يديه الموحلتين ، وابتسم في تكاسل . . . لم يكن بالعربة سواهما . . .

ومضى يتأمل محياها الفاتن في مرآة العربة المثبتة أمامها ، وأحس بالدفء يسري في جسده المقرور . . . ما الذي جاء به الى هذه العربة التي لم يركب مثلها . . . من قبل . . . طيلة حياته . . . وتذكر عربات الأوتوبيس القذرة ومركبات الترام المزدحمة الحقيرة التي يركبها كل يوم في طريقه الى عمله وفي أوبته . . . وتذكر انتظاره على محطات الترام نيفاً وساعة في لفحة البرد أحياناً وفي قيظ الصيف أحياناً في انتظار مكان على (السلم) ، فأوشك أن ينفجر ضاحكاً . . . !

ترى الى أين تمضي به الآن . . . ؟ أ إلى جنة الخلد أم إلى جهنم الحمراء . . . ! ! إن الجنة والجحيم عنده الآن سواء مادامت تسوقه اليهما مثل هذه الحورية ، وما دام ينعم بالقرب منها واستنشاق عبير أنفاسها . . . وحمله جو العربة العبق الى دنيا ساحرة ،

فنسى ألم ساقه بل نسى نفسه وحياته كلها . . . نسى مكتبه الصغير فى إدارة الصحيفة الأسبوعية التى يعمل بها . . . نسى غرفته المشعثة الموحشة التى يعانق فيها وحدته كل ليلة . . انسى القصة التى سوف يقدمها إلى رئيس التحرير فى الصباح ؛ والتى جاء ليستوحى سطورها من هـــذا الحى . . . نسى حياته المغمورة ، وشبابه الضائع ، وآماله المنهاره . . .

ووقفت العربة أمام (ڤيلا) أنيقة ، وتقدم منها ثلاثة من الخدم ، وفتح البواب النوبى باب الحديقة ، فانسابت السيارة داخل البيت . . .

وأقبل أحد الخدم ففتح باب العربة وهو ينحنى بالتحية . . . وهبطت السيدة وأقبلت لتساعد زائرها المتعب على الهبوط . . . وأشارت إليه أن يستند إلى ذراعها حين رأته يحدق بها شاردا مبهوتا . . كان جمالها مثيرا أو بدا له جسدها فاتنا طاغيا يصرخ بالأنوثة الجارفة ، وكانت أعصابه رقيقة مرهفة من أمعان العزلة والتفكير ، فلم يحتمل هول هذه الصدفة العجيبة التى ساقته إليها الأقدار ، بل لم يكن ليتصور أو يحلم بأن يرى مثل هذه المخلوقة المترفة المشحونة بالسحر المنعمة بالاغراء تهتم بأمره إلى هذا الحد وتعطف عليه هذا العطف الملائكى وهو الإنسان الوحيد المشرد . . .

واستند إلى ذراعها البضة ، وأسلم لها نفسه ، تقوده أينما شاءت . . . وفى غرفة الصالون الفخمة أجلسته فى تؤدة على مقعد وثير من القطيفة ، وضغطت (الجرس) بيد ناعمة رقيقة الأنامل ، فأقبلت الخادمة . . .

وعاد العجب مرة أخرى يبهر مشاعره ، إذ رأى أمامه فتاة جميلة ، بديعة التكوين ، أنيقة الثياب ، منسقة الشعر ، انحنت فى رشاقة وهى تنصت إلى حديث سيدتها ، ثم استدارت وانصرفت من الغرفة باسمة . . . وأقبلت بعد لحظات تحمل (فوطة) وفرشاة للثياب ، وتقدمت تنظف سروال صاحبنا مما علق به من الوحل ، وحاول أن يعتذر ويرفض ، ولكن ذهب رفضه أدراج الرياح ، فاستسلم للخادمة الجميلة وهى تقوم بمهمتها فى تنظيف سرواله ، وما عتمت أن فرغت حتى طلبت إليه أن يخلع سترته لتحملها لتنظيفها وكيها . . . وحاول أن يرفض مرة أخرى ، فتقدمت منه السيدة لتساعده على

خلع سترته . . . ومضت الخادمة تحمل السترة فى يد والفرشاة والفوطة فى اليد الأخرى ، وأقبل خادم نوبى يحمل إليهما قدحان من الشاى الساخن .

قالت له وهى تقدم إليه قدح الشاى :

— هل مازالت ساقك تؤلمك . . . أأدعو طبيباً .

أجاب باسماً : كلا شكراً . . . إنى أشعر أن ما كنت أحس به من ألم قد زال من فرط هذا العطف الطاغى الذى أسبلته علىّ . . .

كان يخيل إليه أنه فى حلم حبيب ، وأن هذه المشاهد التى تمر به إنما هى من تهاويل الطيف لاتلبث أن تتلاشى وتندثر كما تندثر صور الأحلام على ضوء الصباح . . .

وتحدثا . . . عرفت أنه كاتب شاب مغمور يسعى جاهداً نحو تدعيم مستقبله الأدبى وأنه يعيش فى وحدة ثقيلة مملة ، فى بيئة تجهله ولا تقدر أفكاره ومشاعره . . . حدثها عن نفسه كثيراً ، انطلق من عقاله . . . أحس بأنها تفهمه وتصغى إليه فى انتباه ، شعر بأنه يجب أن يتكلم . . . أن يبوح بما يكتم فى أعماقه من خواطر وآمال . . . حدثها عن شبابه المفقود وعن حياته الفارغة وعن آماله الرحيبة فى أن يصير يوماً ما من الرجال المرموقين . . . كان يرجو منذ بعيد أن يتحدث بما يجيش فى أعماقه إلى إنسان يفهمه ، إلى مخلوق غير هذه المخلوقات النافهة التى كان يلقاها دائماً . . . !

وجذبتها حرارة حديثه ، فحدثته عن نفسها . . . حدثته عن زوجها الكهل الذى رحل إلى العالم الثانى ، والذى لم تستشعر وإياه طعم السعادة يوماً ، إذ زوجها إليه مرغمة من أجل ماله ، حدثته كيف عاشت شبابها منعمة فى أسرتها الأرستقراطية ولكنها عاشت تعسة لم تذق ذلك الهناء الطاغى الذى كانت تقرأ عنه فى الكتب ، وكيف أنها انتقلت من قصر أبيها إلى قصر زوجها لتقضى شبابها فى سجن معتم ، فى أحضان زوج كهل مقيت . . . حدثته عن القصور والضياع وعن المال الضخم الذى خلفه لها زوجها ، ولكنها لم تستطع أن تشترى به السعادة . . . حدثته عن الرياء الصارخ الذى يطوى بيئتها ، وعن الرجال الذين يتملقونها وينحنون فيلثمون يدها . . من أجل مالها . . . . حدثته عن وحدتها الباردة رغم الحفلات الصاخبة التى تقيمها فى قصرها بين حين وحين

ورغم السهرات التى تحضرها بحكم بيئتها . . وأنصت إليها مأخوذاً . . . كان يوشك أن يبكى وهو ينصت إلى صوتها المتهدج وهى تروى إليه هو الرجل المجهول قصة حياتها، قصة شبابها المسجون فى قفص من ذهب . . !

ما أبعد الفارق بين حياتها وحياته ، ولكن ما أقرب التعاسة التى تربط بينهما . . هى بمالها وذهبها وترفها . . تعسة شقية محرومة ، لم يستطع المال أن يمنحها السعادة التى ترجوها . . . وهو بفقره ونبوغه المغمور وحرمانه الطويل . . . إنه أسعد منها حظاً . . . ما أتعسها . . . ما أشقاها . . . . ! !

وانتبها على صوت أنامل تطرق الباب . . . كانت الخادمة قد أقبلت تحمل إلى صاحبنا سترته . وتطلعا إلى النافذة فإذا الأمطار تنهمر فى عنف . . .

مضيا إلى النافذة يرقبان الأمطار المنهمرة ، وينصتان إلى صوت قطرات المطر وهى ترتطم بزجاج النافذة وأوراق الشجر ، وطواهما الصمت وهما يتأملان الدور والأشجار والطرقات الساكنة . . . وخلفته لحظة لتدير (الجراموفون) ، وانسابت أنغام الموسيقى، هادئة حينا ، قوية أحيانا . .

. . .

قالت له وهى تودّعه حين انقطع هطول الأمطار :

— سوف يوصلك السائق بالعربة ، فإن الجو بارد ، والطرقات موحلة . . .

واعتذر وهو يرفض باسماً حين تصور العربة الأنيقة الوضاءة وهى تمضى به فى طرقات الحى الفقير الموحلة ، المليئة بالأطفال والمياه القذرة التى ينتهز سكان الحى فرصة سقوط الأمطار فيلقونها فى الطرقات . . . ! !

وافترقا وقد تفاهمت روحاهما تفاهماً عميقاً . . . افترقا على أن يزورها فى موعد اتفقا عليه . . . وهبط الدرج الرخامى فى خطوات وئيدة وهو يخشى أن تنزلق قدمه إذا لم يتعود هذه الدرجات الناعمة الملساء . . ! !

وعاد إلى الحى الفقير المعتم . . . وئيد الخطى . . . يتخبط فى الأوحال ، محلقاً فى آفاق فسيحة من الخيال والتمنى . . .

كيف ذاق طعم القبلة للمرة الأولى وعرف معنى حياة الحب في قرية أسوان . . . !

في أسوان . . . التقى بنوح أول شعاع من أشعة الحب في حياته الحيرى . حياة الأرملة الشابة الثرية ، وحياة الأديب الشاب الفقير ، وقهقه الطفل الماكر الخبيث (كيوبيد) وهو يطلق سهمه إلى القلبين .

وتكرر اللقاء . . . وكاشفته بحبها في جرأة نجيبة ، رحمتها عن حياء ، في وجل وخشية ، فكيف له أن يتعلق بمثلها وهو شاب فقير مازال بينه وبين بلوغ الأماني آماداً بعيدة . . . !

وحاولت أن تمنحه من مالها فرفض . . . إن كرامته لتأبى أن يستعين على تدعيم مستقبله بمال لاحق له فيه ، إن رجولته لتأبى في شمم أن تعيش عالة على امرأة . . .

وما فتئت تلح . . . وما فتئ يرفض . . .

ووهبه الحب ندية نجيبة حلو الكفاح . وبدأت أضواء الشهرة الأولى تنعكس عليه وتلفت إليه بعض الأنظار . . . وبدأت كتاباته تدر عليه شيئاً من مال كان ينفقه في نزهاته وسهراته معها فقد كان يرفض أن تنفق عليه من نقودها . . .

وذاق طعم الحب . . . الحب الشاعري النزيه الذي كان يحلم به . . العاطفة المترفعة النقية التي كان ينتظر مقدمها . . . ورأى القاهرة لأول مرة في حياته تستحيل إلى جنة وارفة الظلال . . . . طاف بالأحياء الراقية التي كان يعيش فيها في الخيال . . . مضى برفقتها إلى (الأريزونا . . . وشبرد) . . . وزار معها (مينا هاوس . . . وحلميه بالاس) واضطره الوسط الأرستقراطي الذي اندمج فيه أن يشرب الخمر التي لم يشربها من قبل . .

وكانا يعودان معاً في عربتها ثم يودعها عند باب دارها ، ويقفل عائداً إلى بيته . . .

وتهامس الخدم . . . وطافت الكلمات في أرجاء الحي . . . !

وذات ليلة . . . عادا منتشيين بعد سهرة طويلة ، ولم تتركه لينصرف إلى بيته ، فرافقها إلى غرفتها . . .

وقهقه الشيطان . . . . وانتصرت امرأة . . . . وذاق الفنان طعم الخطيئة . . .

وعلى مذبح الشهوة تحطم الحب . . . .

ومرت أيام . . . وقيدته إليها بأغلال حديدية جبارة . . . أغلال الغريزة ، غريزة الشباب المحروم . . . .

وكان ظامئاً . . . فركع ليرتوى من الغدير الصافى الرقراق . . .

وهبطت مثله العليا إلى حضيض الآدمية . . .

وعادت تلح عليه فى أن يأخذ من مالها . . . فقد كانت تريد إخضاعه ، كانت تضيق بكبريائه ، فرفض أول الأمر منخاذلا ثم قبل ولكن لمرة واحدة كما زعم . . . . !

وتكررت المرة فأصبحت مرات . . . !

وبدأت المتعة والغنى تتسربان إلى الحياة . فستكون المال الذى يجىء دون ما تعب أو جهد أو كفاح . . . .

ومر عام . . . وشبعت المرأة منه ، فتبلدته ليبحث عن غيره ، عن رجل يجلس بيده المال الذى يبعثه الترف فى أعصابها . . .

وخبت شهرة الأديب الشاب البازغة ، وفتر مطالعاته وكتاباته ، وتوارى فى المكتب الصغير بإدارة الصحيفة الأسبوعية ، خامـــلا يقوم بتحرير أخبار السباق والحفلات والولائم . . . !!!

أصنام

استيقظت في الصباح مبكراً . . . كانت ليلتي قلقة ، أنفقتها حائراً بين يقظة مترقبة ونوم متقطع . . . كنت أنتظر في لهفة مقدم الصباح ، فإن شغفاً جامحاً كان يخالجني منذ وطئت قدماي ثرى هذه المدينة العظيمة . . .

عندما هبطت من القطار ، كان المساء قد أرخى سدوله على المدينة ، وكنت متعباً منهوكاً ، فأسلمت حقيبة ثيابي لأول حمّال صادفني ، فمضى بي إلى أقرب فندق في المدينة . . .

وفي الغرفة التاسعة في الطابق الثاني ، ألقيت بجسدي على الفراش ، وجعلت أهدهد لهفتي ، لتسكن قليلا . وتدعني أنعم بالراحة بعد المشقة التي عانيتها إبان السفر ، حتى يشرق الصباح ، فأستطيع أن أشاهد معالم المدينة جلية واضحة في ضوء النهار . . .

وقضيت ليلتي تهباً موزعاً بين السهاد والنوم . . . ولست أدري أكان ذلك من فرط التعب أم من صراخ الشوق في صدري . . . ولهفة الترقب . . .

حتى إذا أقبل الصباح ارتديت ثيابي على عجل . . . وتناولت إفطاراً خفيفاً وقدحاً من الشاي ، ثم شرعت أهبط درجات الفندق مسرعاً . . .

كان ينتظرني أجمل ما رأت عين بشرية . . . من أجله جئت من بلدتي البعيدة ، وتكلفت كثيراً من العناء والجهد . . . أقبلت لأرى كيف استطاعت يد الإنسان الفاني أن تصنع الخلود . . . أن تصور بدائعَ من الفن الرفيع . . .

كانت التماثيل تجثم على الرمال فى جبروت وعظمة . . . تماثيل ضخمة . . . رائعة... بديعة حقاً . . . كانت تصور فضائل الجنس البشرى ، وقد كتب على كلٍّ منها ما يرمز إليه . . . كانت ترمز إلى الفضيلة والوفاء والمرأة الكاملة والأمانة ورجل الدين والسياسى الغيور لوطنه . . . الخ . . .

ورأيت أفواجاً من الرجال والنساء قد أتوا لمثلما أتيت . . . قلت لنفسى . . .

— هذه فرصة طيّبة نادرة . . . يتسنى لى فيها أن أشاهد التماثيل والناس . . . أن أتأمل الفن والطبيعة . . .

وكانت هذه الجموع الصاخبة تقف أمام التماثيل وقفات طويلة . . . تتطلع إليها . . . وتتأملها . . . حتى كان يخيل إلىّ أن هؤلاء الناس جميعاً كانوا وشيكاً أن يركعوا عند أقدام التماثيل سجداً كما يركع الوثنى عند قدمىْ صنمه المعبود . . . !

. . .

ورفعت عينىّ أتطلع إلى تمثال (الفضيلة) ، وأحاديث العابرين وهمساتهم تطرق سمعى . . . سمعت امرأة تتحدث إلى رفيقها قائلة :

— أترى . . . يالها من روعة . . . إن الفضيلة فوق كل شىء . . . إنها حلية ثمينة يجب على كل امرأة أن تقتنيها وتتحلى بها . . .

ومررت بتمثال (الوفاء) فرأيت فتىً وفتاة ، يطيلان إليه النظر ، والفتى يرنو إلى فتاته فى شغف ، ويضغط يدها فى حنان : ويحدثها فى خفوت :

— صدقينى ياحبيبتى . . . إن الوفاء من طباعى وسجيتى . . . صدقينى يافتاة القلب وتوأم النفس لن أحب يوماً وان أضم إلى صدرى سواكِ . . .

وخلفت هذا العاشق المفتون ورائى . ومضيت أتأمل تمثال (المرأة الكاملة) ، فرأيت إلى جانبى امرأتين قد أسدلت إحداهما على وجهها غلالة كثيفة تخفى محياها الفاتن ، وقد ارتدت ثياباً تحفظ جمالها من عيون الفضوليين . . . يثير وقارها واحتشامها آيات الاعجاب فى النفس . . . سمعتها تقول لصاحبتها فى حياء :

— ما أيسر أن تكون المرأة في الدنيا كاملة الصفات ، مترفعة عن الأوزار ، نقية النفس طاهرة . إنني وإن كنت أسعى إلى هذه الغاية من زمن بعيد إلا أنني ما زلت في أول الطريق أسعى نحو المثال . . .

وسمعت صاحبتها تقول :

— ما هذا الذي تقولين . . ؟ أستغفر الله ! ؟ إنك — وأيم الحق — امرأة كاملة . . إنك لست من دنيانا هذه . . . إنك قديسة طاهرة . . .

وعند تمثال (الأمانة) رأيت رجلين ، يبدو من مظهرهما أنهما من ذوي الثراء ، سمعت أحدهما يقول لصاحبه :

— ألم تعرف المرأة التي رأيتها عندي في الأسبوع الماضي . . . إنها زوجة صديقنا المرحوم إبراهيم بك . . . شد ما أرثي لها . . . إنني مذ مات المرحوم وأنا أعطف عليها أشد العطف وأرعى أولادها . . . صدقني . . . كأنهم أولادي . . . إنّ المرحوم قد أوصاني بها وهو على فراش الموت ، وضع اسمي في وصيته وكيلا على أملاكه ووصياً على أطفاله . . . وأنا من يومها لا أدخر وسعاً في سبيل إسعاد هذه الأسرة المسكينة وأداء الوصية في أمانة . . .

ومررت بتمثال (رجل الدين) ، فرأيت شيخاً يتحدث إلى خادمه في صوت مرتفع كأنه يخطب في حفل . . كان يقول :

— أجل . . . إن على الأغنياء أن يقوموا بأداء الزكاة ، والإحسان إلى الفقراء والمساكين . . . إنني أعرف يا بني أناساً يقضون الشهور الطوال لا يذوقون طعم اللحم . . والأغنياء المنافقون في ضلالهم يعمهون . . . إنني أهب دائماً شطراً من راتبي الصغير للفقراء زيادة على تلك النقود التافهة التي تبرع بها فئة ضئيلة من الناس . . . .

ورأيت عند تمثال (السياسي الغيور لوطنه) حشداً من النـــاس ، فمضيت لأرى ماحدث . . . رأيت رجلا يحيط به القوم في تبجيل واحترام . . . إنه رجل عظيم

عن رجال السياسة ، بين يديه مصير الوطن . . . كان يتحدث إلى أتباعه فى حرارة :

— الاستقلال أولا . . . الحرية . . . إننا لا نقبل هذا الهوان . . . سأحقق بنفسى مصير هذا الوطن ، وسأرغم هؤلاء الأجانب على الرحيل مباشرة ، سأطردهم من أرض أجدادنا وآبائنا . . .

. . .

وظللت فى طوافى بالتماثيل . . . حتى كلّت قدماى . . .

ومضى النهار . . . وهدأت الشمس . . . وكان غيرى قد راودهم التعب ، فافترشوا الرمال . . .

وفى ناحية هادئة بعيدة عن الصخب جلست . . . وجعلت أفكر فيما رأيت وسمعت . . . وتشعبت أفكارى ، وسبحت فى أجواء بعيدة . . .

وما عتمت أن غربت الشمس . . . وهدأ الضجيج . . . ثم أشرق القمر وأرسل ضوأه الفضى الساحر على الرمال والتماثيل ، فبدا المكان كأنه لوحة خيالية رائعة . . .

كانت الرمال تبدو كأنها غلالات حريرية قد فرشت على الأرض . . . انتصبت عليها التماثيل فى جبروت وقد ألقت خلفها ظلالا قاتمة . . .

وطرق سمعى همس خافت ، كأنه حفيف الأجنحة ، فقمت لأطوف قليلا . . . أمتع النفس بضوء القمر ، وروعة المشهد ، ونسيم المساء الهادىء . . .

وسرت فى الطريق الخلفى للتماثيل . . . .

رأيت فى ظل تمثال (الفضيلة) امرأة مضطجعة على الرمال بين أحضان رجل . . . وقد نبذت بعض ثيابها ، ومضت — والرجل يلثم شفتيها — فى غفوة حالمة . . . يا إلهى . . . إنها المرأة التى كانت تمجّد الفضيلة فى الصباح . . !!

وخلف تمثال (الوفاء) رأيت ذلك الفتى الذى كان يتحدث إلى محبوبته فى الصباح ، وهو يضم إلى صدره فتاة سواها . . . ويهمس فى أذنها أنشودته المعاده . . . ! !

وعند تمثال (المرأة الكاملة) رأيت تلك المرأة التى كانت تسدل على محياها غلالة كثيفة ، وتحجب جسدها الفاتن عن عيون الفضوليين . . . رأيتها — وقد خلعت غلالتها وثوبها ، وبدت فى قميص حريرى شفاف يكشف عن ذراعيها وصدرها — بين ثلاثة شبان . . هذا يقبلها وهذا يهدهد ثدييها وهى ترفع إلى ثغر الثالث كأساً من الخمر . . . !!

وخلف تمثال (الأمانة) رأيت ذلك الرجل الذى يبدو من مظهره أنه من ذوى الثراء ، وهو يشيح بوجهه وامرأة مسكينة قد سقطت على الرمال عند قدميه وهى تجهش بالبكاء وتقول له :

— حرام عليك . . . تتركنى بلا مال وتفر إلى هنا . . . أهذه وصية صديقك ، تستولى على ماله وتترك زوجه وأولاده يتضورون . . . إنهم يتامى مساكين ومع هذا لا يخالجك نحوهم عطفاً . . . إننا لانريد منك عطفاً أو نطلب إحساناً . . إننا نريد مالنا . . . مال اليتامى الذى تأكله وتتمتع به . . . !

ومررت بتمثال (رجل الدين) فرأيت ذلك الشيخ الذى كان يتحدث فى صوت مرتفع كأنه يخطب فى حفل ، وهو يقول لخادمه :

— هات ما جمعت من نقود باسم الفقـــراء والمساكين . . . هاتها فإنى أحوج ما أكون إليها ، وخذ هذا نصيبك . . . !!

وما كدت أدنو من تمثال (السياسى الغيور لوطنه) حتى سمعت صوت رجل أجنبى يتحدث فى لغة أوروبية يقول :

— ولكن ثلاثة ملايين من الجنيهات مقداراً ضخماً . . . !

ثم سمعت صوت ذلك السياسى العظيم الذى كان يتحدث إلى أتباعه فى الصباح ، والذى بين يديه مصير الوطن ، وهو يقول .

— كلا . . . ! ثلاثة ملايين ليست بالمبلغ الضخم كما تتصور . . ثم انكم ستظلون . . !

وسمعت صوت حفيف أوراق . . . ؟!

. . .

وإلى هنا كانت نفسى قد تداعت ... كما انهار الرمال تحت ضربات المعول ..

وأحسست بقواى تخور ، وقدماى لا تقويان على حملى ... فجلست على الرمال ...

كانت صدمة هائلة حطمتنى ... لقد تبدت لى الحقيقة ... كما هى ... سافرة بلا تمويه أو زيف ... عند أقدام التماثيل الكاذبة تحطم إيمانى بالواقع ... وبالناس ... وبالبشرية كلها ... !!

ومرت بى ساعات لم تمر بأحد من الناس من قبل ... كنت يقظاً كالنائم ... ومنتبهاً كالوسنان ... كنت أحس بالألم يعصر قلبى ...

ومضى بعض طويل من الليل ، وأنا لا أفكر فى شىء أو أفكر فى كل شىء ...!

وانتبهت لنفسى أخيراً ، فإذا سكون عميق يطوى المكان تحت جناحيه ، وإذا الهمس الذى كان يحمله إلى النسيم قد تلاشى ... وانصرف القوم ، واستغرقت الطبيعة فى غفوة طويلة ...

وتلفت حولى ، كأنى أبحث عن شىء مفقود ... عن سراب طالما أضنانى البحث عنه ... ! ! ورأيت شيئاً يلتمع فى ضوء القمر الغارب ، قد توارى بين الرمال ... !

وحين اقتربت من هذا الشىء وفحصته ألفيته فأساً ، لعله فقد من أحد الرجال الذين يعملون فى الجبل ويمرون بهذه المنطقة ... !

وكنت ثائر النفس ... فأهويت بالفأس على أول تمثال صادفنى ... يا إلهى ... سرعان ما تحطم تحت ضربات الفأس ... وا أسفاه .. ! ! كنت أظنه من الصخر الجلمود

ولكنه كان من (الجبس) الخائر الهش .. ! ! ؟

ورفعت الفأس .. وظللت أهوى به على بقية التماثيل ... !!

. . . . . .

. . . . . .

وأشرق نهار جديد ... وأقبلت أفواج الرجال تسعى ... ولكن ...

ولكنهم مضوا يتساءلون عما حدث ، ومن الذى فعل هذا ... ؟ !

وجعلوا يتنقلون هنا ... وهناك ... ويطأون بأقدامهم بقايا الأصنام المعبودة !

شارع فؤاد

هل رأيت النساء الجميلات الفاتنات ذوات العيون الساحرة والخدود الموردة والثغور القرمزية ؟ !

هل رأيت الأذرع الفضة السمراء كاللهب ؟ !

هل رأيت السيقان البضة المشرقة كأضواء الفجر ؟ !

هل رأيت الأجساد الرقيقة الرشيقة كالظباء ، التى توقظ الخيال وتسهد جفون الرجال ؟ !

هل رأيت الأجساد البدينة الدافئة ، البديعة التنسيق ، التى يتأرج من ثناياها عطر الخطيئة فيذهل العقول ؟ !

أيها الرجال .. الحذار الحذار ... الحذار من الضلال والغواية ، الحذار من أشباح الخطيئة التى تتوارى فى المنعطفات ، حتى إذا ما رأت أحدكم تسللت تمضى إلى جانبه تسدد خطاه وترشده إلى الطريق ...

إن هذه الأشباح تكمن فى منعطفات شارع فؤاد ... فمن منكم لا يعرفه ! ؟ إنها هناك تعيش ومن هناك تسعى ...

* * *

إذا كنت شاباً تخشى على عفاف نفسك ، أو كنت زوجاً تؤثر الوفاء لزوجتك أو كنت أباً تضمر المحبة لبنيك والبر بهم ، أو كنت كهلاً ودع أعوام شبابه وآثر

الوقار على الطيش والنزق ... إذا كنت امرأة تقية أو فتاة طاهرة يؤذيكما ن يصبح جسداً كما متاعاً مباحاً لنظرات الفضوليين . . أنتم ياهؤلاء ... بربكم لاتذهبوا إلى شارع فؤاد ، إذا آثرتم راحة البال وهدوء النفس والوفاء لذويكم ولنفوسكم ، وإذا مررتم به فروا سراعاً كأن هنا لك من يطاردكم ...

إنه طريق كاذب منافق ... كل ما فيه رياء وزيف... إنه صنيعة الحضارة الأوروبية الحديثة ... فيه يتوارى الشرق المجيد ... بفضائله وإيمانه ورزانته ، ويبدو الغرب المنافق بزيفه ورذائله وطيشه ... ! !

. . .

وأنتم أيها الرجال الحمقى الذين تتسكعون دائماً فى شارع فؤاد ، وتقفون أمام واجهات الحوانيت وقفات طويلة كأنكم تتطلعون إلى المعروضات ، وأنتم ترسلون النظرات خلسة ... تحدقون فى أجساد النساء وسيقانهن ... إنكم لا تعلمون أى مصير ينتظر أحدكم لو دفعة الفضول يوماً لأن يتبع ساقين رائعتين من هذه السيقان البديعة ...

صدقونى ... إنكم لاتعلمون ... لقد سمحت لفضولى يوماً أن يتبع امرأة ... رأيتها فى شارع فؤاد ... ليرحمنى الله ... لقد كانت قصة ...

. . .

كانت بداية القصة ذات صباح ... من أيام ربيع ... وكنت أتسكع وحيداً فى شارع فؤاد أتأمل المعروضات الحديثة التى تفنن أصحاب الحوانيت فى تنسيقها خلف الواجهات الزجاجية اللامعة ... كنت فى الرابعة والعشرين من عمرى ، طويل القامه فارع الجسد ، نحيلا كأحد فرسان العرب الذين لفحت وجوههم شمس الصحراء وجعل الإفراط فى التنقل والرحيل أجسادهم مشوقة كالرماح ... وكان لوجهى حظاً من جمال ورثته عن أبى ... وأمى ... !

كنت فى ربيع الشباب ، ولكنه كان شباباً محروماً ظامئاً ... ترفعه إلى الذروة مثل عليا ومبادىء رفيعة ، وتهبط به إلى دنيا الناس حقيقة البشرية ونداءات الجنس ... ويعيش بين هذه وتلك فى حيرة قاسية وفلسفة مضنية ... فى دنيا فسيحة يطوف بها الحرمان المرير ويطويها تحت جناحيه ...

ما كان أبشع ذلك الحرمان الهائل الذى كان يعصف بجسدى ، وأحس به يهصر شبابى فى قبضته ، حين أتطلع خلسة إلى امرأة فاتنة يصرخ جسدها الرائع بالنداء المشبوب ... امرأة عابرة من هذه التماثيل الرائعة التى أبدعتها الطبيعة ... كنت أحس حين ذاك برجولتى الحائرة المحرومة تثور عند ساقيها البضتين ، وتنسى لحظة إيمانها بالمثل الرفيعة التى تتعشقها ، وتتمنى لو تهالكت عند هذين الساقين ، تطلب المتعة وتنشد هدوء الفكر والجسد وشفاء الروح المريض المحروم ...

كنت أتسكع ذلك الصباح فى هذا الطريق الصاخب الجياش ، أمتع العين بما يحلم به الشباب المحروم ... حين رأيتها ...

كانت واقفة تتطلع إلى معروضات (شيكوريل) ... اقتربت منها ووقفت غير بعيد أتأمل المعروضات ... وأتأملها ... كانت تحفة رائعة من بدائع الفن والطبيعة... كانت امرأة وهبتها الطبيعة كل ما وسعها أن تهب من جمال الوجه وفتنة الجسد .. صدقونى ... لقد نسيت إزاءها كل شىء ... نسيت التقاليد وآداب اللياقة ، وجعلت أحدق فيها وألتهم جسدها ووجهها بنظراتى ...

كانت امرأة فى الثلاثين من عمرها تقريباً ... طويلة القامة ... سمراء فى لون سنابل الحنطة الناضجة ، وكانت ترتدى ثوباً يكشف عن ذراعيها ، فبدا الذراعان الملفوفان يضيفان روعة أخاذة إلى جمال الساقين الممتلئين الناعمين كقشرة التفاح ، وكان الثديين البارزين يبدوان من تحت الثوب الحريرى الشفيف كأنهما بلا ثوب يحجبهما عن العيون ... كانت استدارتهما وشموخهما يجعلهما يبدوان فى وضوح أخاذ ، يدعوان

الرجال لكى يصبوا — من جديد — أطفالا ... ؟ ! ويتهوى هذا الصدر البديع الناضج المرتفع الى خصر نحيل ينوء بالردف الثقيل والسيقان البضة الملفوفة ، ومن جديد تبدو السيقان عارية — بلا جوورب — تذكر المرء بلونها القمحى العسلى بما يحجبه الثوب الماكر خلفه من اعضاء فى لون (الريسكى) الذهبى وفى نعومة القطيفة ... كانت هذه المرأة ثورة على أعصاب الرجال ... كان كل عضو فى جسدها يهتف وينادى ... كان هذا الجسد الملىء ... يذكر المرء بالفراش الوثير فى الغرفة المغلقة النوافذ المسدلة الستائر ... ؟ !

كنت محروماً ... وكان شبابى يفور فى اعماقى يريد أن يحطم السدود والقيود ، قلت لنفسى وأنا أغمض عينىّ نصف اغماضة فأتصور شبابى المحروم بين أحضان هذه المرأة الفاتنة فى الغرفة الهادئة المغلقة النوافذ :

— يا إلهى ... يالها من امرأة ... تنسى الانسان كل شىء ، العالم كله ... الماضى والحاضر والمستقبل ... تجعل الدنيا تستحيل فى لحظة إلى غفوة حالمة ...

ورأيتها تلتفت خلفها ، كأنما أحست بوقع نظراتى على جسدها ، وحدقت فى وجهى لحظة خاطفة ثم هبطت بنظرها من وجهى إلى قدمىّ ، ومرت بشفتها العقيقيتين ابتسامة عابرة ، ثم مضت فى خطوات وئيدة ...

تلفت حولى أبحث عن ذلك المحظوظ الذى وهبته بسمتها الخاطفة ... لم يكن إلى جوارى رجل آخر ... كان كل ما يحيط بى أفواج من النساء والعذارى ... نساء أقبلن يتسكعن فى هذا الطريق ليسمعن — من الرجال — كلمات الإعجاب والثناء ... لقد جبلت المرأة على الأيمان بالكلمات ... إنها تنصت لكل شىء ، وتعمل بكل شىء تسمعه حتى ولو كان فيه حتفها ... لقد أنصتت حواء إلى حديث الشيطان يوماً ، فأطاعته ... وكانت النتيجة أن خرجت من الجنة ... ومن يومها وبناتها يلذهن دائماً الإنصات للأحاديث ... حتى ولو كانت أحاديث شياطين آدمية ... يكون فيها هلاكهن ويتقرر مصيرهن ، ويخرجن من جناتهن كما خرجت أمهن حواء من جنتها من قديم الزمان ... لم يكن إلى جوارى رجل آخر ... إذن فأنا المحظوظ الذى وهبته بسمتها ... ! ألا يمكن أن يتم القدر نعمته على القلب المحروم ، فيمهد لى سبيل التعرف اليها ... ؟ !

واستدارت تنظر خلفها ، وتسوى بيدها خصلة تهدلت من شعرها الناعم البديع ، وتلاقت عيناها بعينى . . . وشاعت على شفتيها بسمة مشرقة ، وابتسمت أنا الآخر . . .

أدركت فى نظرة خاطفة أنها عرفت ما يجيش فى أعماقى . . . رأت ذلك اللهيب المضطرم الذى يلوح فى نظراتى . . .

ولم يكن بد من أن أتبعها . . حتى إذا بلغت نهاية الطريق قطعته عرضاً ثم انحدرت يميناً فى شارع ابراهيم باشا صوب ميدان الأوبرا ، وأنا غير بعيد منها أرقبها بكل ما أوتيت من قوة البصر حتى لا تتوارى بين أشباح المارة . . .

ومضت ترتقى درج فندق (الكونتنتال) ، حتى إذا ما وصلت أمام مدخل الفندق وبدأت أضع قدمى على أول الدرج ، كانت قد جلست إلى مائدة منعزلة فى ناحية هادئة . . .

كان المكان هادئاً . . . إلا من بعض الرجال والنساء قد جلسوا إلى موائدهم ، ومضوا يرقبون الطريق ويتطلعون إلى المارة فى ترفع رزين . . .

وكانت هى قد وضعت حقيبة يدها على المائدة ، وشرعت تسوى شعرها ، وقد ارتسمت على شفتيها بسمة وتعلقت نظراتها بنظراتى كأنها ترقب مقدمى . . .

كان فى نظراتها وبسماتها إغراءاً صارخاً ، ووجدت نفسى أتقدم نحوها ، وأنا لا أدرى ما سوف أقول . . . كنت أتقدم منها . . . كما يمضى النائم . . .

وحيتها تحية الصباح ، فردت تحيتى بصوت ناعم رقيق ، وقد بدت باشة مبتهجة كأنما قد أرضاها شغفى بها وجرأتى . . . قلت لها :

ـــ أما تسمحين لى أن أشاركك مائدتك . . . فى هذا الركن الهادىء . . .

قالت :

— تفضل . . .

وفى المقعد المواجه لها جلست . . .

ماهذا العبير النفاذ الذى يبعثه العطر القوى الذى يضوع الجسد الفاتن ، وهذا الثغر الذى يهتف بالجنون ويذكر الجائع بالطعام الشهىّ ، وهذا الصدر البض الذى يبدو من فتحة الثوب جياشاً بالدفء والنعومة . . .

وتحدثنا عن الجو . . . ! ! ثم تشعب بنا الحديث . . .

— أوه . . . نانا . . . ما أبدع هذا الاسم . . . لعلك تلك التى استوحى منها (إميل زولا) قصته الخالدة (نانا)

وحين افترقنا . . . افترقنا على موعد باللقاء . . . قالت لى إننى أستطيع أن أزورها فى بيتها الذى تقطنه مع أمها . . . إنها إيطالية متمصرة ، وتقاليدها تبيح لها الاختلاط بالرجال . . .

وكان الموعد فى المساء التالى . . . فى الساعة الثامنة مساءً . . .

. . .

لست أدرى كيف أقبل المساء التالى . . . لقد أنفقت ساعات من اللهفة والقلق كنت أظن أنها لن تنتهى . . .

وجعلت أرتقى درج العمارة الفخمة ، فى قلب العاصمة ، وطرقت باب (الشقة) المنشودة . . .

يانانا . . . هأنذا قد جئت مذهولاً من فرط الرغبة والحنين . . . جئت لأتهالك عند قدميك وأمرغ وجهى الملتهب على السيقان البضة . . .

وطرقت الباب مرة أخرى ، فانفرج الباب عن وجه نانا . . .

ـــ أهذا أنت . . . إنى أنتظرك . . . .

وأمسكت يدى بكلتا يديها . . . صافحتنى فى حرارة وشوق كأنها تعرفنى من زمن بعيد . . . كانت ترتدى (روباً) من الحرير الأحمر ، ينفرج عند الصدر قليلاً ، وينحسر عند الساقين عن قميص حريرى شفاف . . .

ومضت بى إلى (الصالون) . . . كانت الغرفة فخمة بديعة التنسيق ، قد أسدلت على نوافذها ستائر من القطيفة الحمراء وفرشت أرضها بالسجاد الثمين . . .

وجلست . . . وجلست نانا على مقربة منى ومضت ترحب بى . . .

أيها الحرمان . . . أيها الشبح المقيت ، لتذهب إلى الجحيم ، إلى غير عودة . . . هنا الشباب . . . هنا الحب . . . هنا المتعة . . . لقد انتصرت أخيراً . . . إنها الليلة الموعودة ، التى سأنسى فيها الدنيا . . . الدنيا كلها . . . واقتربت منها . . . من نانا المعبودة . . أغنية الشباب المحروم . . . وتناولت يدها الغضة ذات الأنامل العاجية الموردة . . . وكانت تبتسم فى رضى حين رفعت يدها إلى شفتى الملتهبتين وقبلتها فى نهم . .

يا للقبلة اللذيذة . . .

قالت نانا :

ـــ كفى بربك هذه القبلة . . . إنى أحس بشفتيك تحرقنى . . . إنك فاتن وقلما رأيت مثلك . .

أتصدقنى لو قلت لك إنى أعجبت بك من أول وهلة . . . وكنت أشعر بنظراتك الساخنة وأنت تتبعنى وهى تلهب جسدى كضربات السياط أيها الشاب الماجن العربيد . . .

وضحكت . . . كانت ضحكتها كرنين أكواب الفضة ، أو كاهتزاز أوتار الكمان

تحت ضربات القوس ، وخيل إلى أن ضبابا كثيفا يهبط على الغرفة ويحجب المرئيات عن ناظرى ...

كنت شابا محروما ... وكنت وحيدا ... مع امرأة مثيرة .. امرأة تميل الملائكة شياطينا ، وتجعل الشياطين ملائكة ... !!

ولم أكن قد تركت يدها بعد ... كانت يدها قد استقرت بين يدىّ الساخنتين ... واقتربت منها أتلمس الطريق إلى شفتيها ...

وسمعت طرقا على باب (الشقه) فأجفلت وأنصتت نانا ...

. . من هذا الدخيل الذى أقبل يتلصص على السعادة والحب ... ! ؟

وسمعنا صوت الباب يُفتح وصوت الخادمة تقول :

— السيدة ليست هنا ..

وسمعت صوت رجل يقول :

— كلا ... إنها هنا ... وأنا أعرف أنها موجودة ...

وسمعت وقع أقدام تقترب ... قالت نانا ثائرة :

— من هذا الذى يجرؤ على اقتحام بيتى بهذه الجرأة ...

وانتفضت واقفة ، ولم تكد تخطو خطوة حتى دُفع الباب وولج الغرفة أربعة رجال ..

دهشت ... ومن فرط دهشتى ظللت جالسا فى مكانى لا أتحرك ... !

كان أحدهم ضابطا من ضباط البوليس المصرى والآخر من ضباط البوليس الحربى الإنجليزى ، أما الآخران فكانا مصريان يرتديان الثياب الإفرنجية ويبدو من مظهرهما أنهما من رجال البوليس السرى ..

قال الضابط المصرى موجها حديثه لنانا :

تأكدى أن البوليس سيظل وراءك حتى تقعى فى شباكه ، أو تكفى عن هذا العمل وتبحثين لك عن مورد آخر من موارد الرزق غير هذا المورد القذر ...

قالت نانا غاضبة :

ـــ أرجوك ... لا تقل هذا ... بأى حق تقول هذا الكلام ...

قال الضابط ثائراً :

ـــ يجب أن تعلمى أن البوليس يراقبك دائماً ... يجب أن تعرفى أنك لن تستطيعى السخرية منا .. لا تتجاهلين ... إننا نعرف جيداً أنك تديرين (شقتك) للدعارة السرية ..

واقترب الضابط منى ووجه حديثه لى فى احترام بعد أن شملنى بنظرة .

ـــ وحضرتك .. هل تعرف السيدة نانا .. ؟

قلت وما زلت جالساً فى مكانى :

ـــ أجل أعرفها ...

قال : من بعيد ...

قلت كاذباً : من مدة طويلة ... !!

قال : أرجو أن تغادر الآن هذا المكان ... وألا تعود اليـــه ، فإنه سيظل تحت رقابة البوليس ... تفضل بالخروج ، فإنه يبدو من سماتك أنك من أسرة طيبة وحذارى من العودة ثانية ...

ورأيت نانا واقفة صامتة منكسة الرأس لا تعترض ولا تثور ، فأدركت الحقيقة ولم أجد بداً من الإذعان ، فقمت واتخذت طريقى إلى باب (الشقة) ...

وأقبلت نانا تودعنى وهى ممتقعة الوجه وقد انفرجت شفتاها عن ابتسامة شاحبة ، قالت لى هامسة وهى تصافحنى :

سأنتظرك هنا بعد غد .. فى العاشرة صباحاً ...

* * *

وجدت نفسي أخيراً في الطريق المظلم .. أمضي على غير هدى ...

ليرحمك الله يانانا ... وليغفر لك خطاياك ... وليرحمني أنا أيضاً ... فإني كنت في الجنة ... وخرجت منها ... !

وعلى كل حال ... كنت أريد أن أنالك ... سواء كنت تبيعين الجسد للعابر الذي يدفع الثمن ، أو كنت قديسة من بنات المعابد ... ! !

لقد أضرمت النار في جسدي يوم رأيتك ، ومن ساعتها وأنا أهيم على وجهي كالمسعور ... لا أفكر في شيء إلا أنتِ ... أنتِ الفكرة الثابتة الملحة التي تلاحقني ...

وما أقسى الظلام والوحدة والحرمان يانانا ... ما أقسى ذلك بعد أن أصبحت على قيد خطوات من النعيم ...

وبدأ شبح الحرمان يمضي إلى جانبي من جديد ... يسخر مني ... ويذكرني بأنني انتصرت وكأنه يقول لي (وتقدرون فتضحك الأقدار) !

وظللت أهيم على وجهي ساعات ... أنتقل من طريق إلى طريق ، وأحسست بوحدتي القاسية وسط الزحام البشري الذي كان يموج في الطرقات ويتسكع أمام واجهات الحوانيت المضيئة .. في هذه الليلة من ليالي الربيع ...

. . .

وجاء الموعد المنتظر ... وجعلت أرتقي درج العمارة صوب الشقة المنشودة ... وأنا مضطرب متلاحق الأنفاس ...

هأنذا يا نانا ... مرة أخرى .. جئت اليك ضارباً بإنذار البوليس عرض الحائط ...

طرقت الباب ... ولم يجبني أحد ... توقفت هنيهة ثم عاودت الطرق ... ولكن الباب ظل مغلقاً .. لا يتحرك ولا ينفرج ...

ظللت أطرق الباب كالمجنون ، حتى خيل الي أن الباب كاد يتداعى تحت طرقاتي ...

وأخيراً خلفته ورائى وهبطت الدرجات متخاذلا ...

تقدمت من البواب النوبى وسألته :

— أليست (مدام) نانا موجودة ... ؟

فوقف البواب فى حركة تقليدية وهو يقول باسماً بسمة ذات معنى :

— كلا ياسيدى ... إنها انتقلت بالأمس الى منزل آخر ...

سعلت ومددت يدى إلى جيبى فأخرجت صندوق اللفائف ... تناولت لفافة وأعطيته أخرى ... تقبلها شاكراً ...

قلت له مرة أخرى :

— ولكن ألا تعرف أين انتقلت ..: ؟

قال : كلا ياسيدى . . . إنها لم تترك عنوانها الجديد ، ولا يعرف أحد إلى أين ذهبت ...

. . .

ما أقساك يانانا أهكذا يكون العبث بقلوب الرجال . . . الرجال المساكين من عشاق الجمال ...

كيف أبحث عنك الآن ، وأين أعثر بك فى هذه المدينة الفسيحة المزدحمة بملايين البشر ...؟

لقد فرت المسكينة من البوليس الذى يطاردها ... فرت الى مكان أمين ، وخلفتنى لقلبى الجريح وشبابى الثائر ...

هل تصدقونى إذا قلت لكم أننى عضيت أجوب الطرقات أياماً عديدة أتطلع الى آلاف النساء أبحث بينهن عن الوجه المنشود ... ؟ هل تصدقونى إذا قلت لكم أننى قطعت شارع فؤاد ذات يوم أكثر من مائة مرة ، وأننى كنت أجلس فى احدى المقاهى المتناثرة فيه ... أحدق فى المارة ... وياطالما رأيت امرأة تعبر الطريق ... من بعيد ...

فيخيل الىّ أنها هى ... نانا الحبيبة، فأترك مكانى وأخترق الزحام مسرعاً خلفها، ثم أدرك أخيراً أن القدر يسخر منى ويلهوبى ...

لقد كان طيف نانا يلازمنى دائماً ... فى النهار وفى الليل ... كنت أراها فى أحلامى وهى ترتدى (الروب) الحريرى الأحمر ثم وهى تخلع الروب والقميص الشفاف وترقد إلى جانبى عارية ، لنروح معاً فى انطلاقة طويلة ...

وكانت أحلام الليل تتركنى مجنوناً بالنهار ... ! !

وبدأت أبحث عن امرأة ... ترضى نداء الغريزة الثائرة ... الجامحة ...

وسقطت ... وبين أحضان النساء من بائعات المتعة الجسدية ... فى الخانات ... وفى البيوت المريبة كنت أنفق أغلب ليالى ... وأطلقت لشهواتى العنان ...

أين أفكارى الرفيعة ؟ أين مثلى العليا ... ؟

وا أسفاه . لقد تبخرت وتلاشت ... كما يتلاشى الضباب تحت أشعة الشمس ...

. . .

قال أخى وهو يتقدمنى :

— حمداً لله على سلامتك ... هيا بنا فإن أفراد الأسرة جد مشتاقون اليك ...

وقال الطبيب وهو يودعنى :

— مع السلامة ياسيدى المهدى المنتظر ... ! ؟

واقترب منى باسماً ، كأنما يختبرنى اختباراً أخيراً قال :

— هل تتكرم بأن تذكر لى اسمك الكريم وتاريخ اليوم لكى نثبتهما فى دفترنا الخاص ..

قلت له ضاحكا :

— اسمى ابراهيم فتحى ... واليوم ٣ أغسطس سنة ١٩٤٥ ..

وضحك الطبيب وهو يقول :

— ابراهيم فتحى وليس المهدى المنتظر ... ياخسارة !!

وخرجت يرافقنى أخى ... من مستشفى الأمراض العقلية ...

كل ما أذكره الآن أننى قضيت ثلاثة شهور تقريباً من نزلاء هذه المستشفى ... أما كيف ذهبت فلا أذكر عن ذلك شيئا ... كل ما أذكره الآن أن ذاكرتى كانت تتلاشى رويداً رويداً تحت تأثير الخمر والانطلاق فى الشهوات ثم ... ذاكرتى المفقودة وهى تعود الى تدريجياً كما يستفيق الثمل من نشوة الخمر أو كما يستيقظ النائم من كابوس ثقيل ...

. . . . .

أيها القارىء العزيز ... ليحفظك الله من التطلع إلى النساء الفاتنات العابرات بشارع فؤاد.!!

أيها القارىء العزيز ... ليرعاك الله ويسدل عليك حمايته ، وليحفظك من غواية الشيطان ومن سحر النساء الجميلات حتى لا تصير يوماً من نزلاء مستشفى الأمراض العقلية ... !!

على الهاوية

« من كان منكم بلا خطيئة فليرجمني بأول حجر ... »

« السيد المسيح عليه السلام »

ياسيدتي ... أتعرفين من أين أتحدث اليك الآن ... ؟ إني أظن أنك لن تستطيعي أبداً أن تحدسي ذلك، حتى ولو فكرت طويلاً ... طويلاً جداً ، بل ويتمادى بي الظن فأؤكد أنه لن يستطيع مخلوق أن يخمن من أين أتحدث اليك ، مهما أوتي من سعة الخيال ويقظة الفكر ... !

إنني أتحدث اليك من مكان ناء مجهول ، مكان أظن أنه لم تعرف قدماك السبيل اليه يوماً ، فإنه مكان متواضع لا يعيش فيه إلا الآدميين المساكين الذين كتبهم القدر الساخر في صحائفه المظلمة ... مكان يعيش فيه الفقراء المحرومين من البشر ، من أولئك الذين يمثلون الروتين الطبيعي للأحياء ... أناس يعيشون على الفطرة ، لم يتعلموا ... ولم يقرأوا . . فلم يفسد العلم طباعهم ، ويشوّه أفكارهم ، ويجعلهم ينحرفون عن الطريق القويم ... جاءوا الى الحياة ليعيشوا كما عاش آباءهم وأجدادهم من قبل .. يولدون ويتزاوجون ... وينسلون ، ثم يموتون أخيراً في هدوء كما جاءوا ، بعد مرحلة شاقة مجدبة ، وقد خلفوا وراءهم نبت جديد يسعى إلى الحياة كحلقة جديدة من سلسلة البشرية اللا نهائية ...

إني أتحدث اليك ياسيدتي من مقهى صغير في (قلعة الكبش) ذلك الحي العتيق الذي يجثم عند أقدام الجبل ، وقد تتساءلين ما الذي جاء بي الى هذا المكان ، وما الدافع

الذى قذف بى الى هذا الحى المتوارى ، فأقول لك أنى جئت إلى هنا كى أسرق قصة من قصص الحياة ، أقدمها لقرائى وأقصها عليك ياسيدتى العزيزة . . ؟

إن صناعتى ياسيدتى — كما تعلمين — أن أنقل الى الورق صوراً حية من حياة الآدميين ، صوراً من سعادتهم وصوراً من شقائهم ، صوراً من حبهم ووفائهم وصوراً من غدرهم وخيانتهم ، لذلك فأنا أعيش بينهم ، وأتسلل بين مساكنهم وأجوس بين طرقهم . . أعاشر الصعاليك وأعرف المترفين ، أشارك اللصوص والقتلة طعامهم ، وأحرق اللفائف مع النساء الساقطات . . ! ! أتحدث إلى النساء الفاضلات لو صادفت يوماً امرأة فاضلة وأنصت إلى أحاديث النساء الخليعات وكثيراً . . كثيراً جداً ما ألقاهن . . ! !

فتارة تجدينى فى (الزمالك) وتارة فى (المطرية) وتارة فى (السيدة زينب) . . تارة فى وكر من أوكار الشيطان ، وتارة عند (أم فوزية) الطيبة . . العجوز التى تفتح مصراعى بيتها الصغير للعشاق الحيارى ، وتارة أمام ضريح السيدة زينب أقرأ الفاتحة فى خشوع . . تارة عند (خريستو) أجرع كؤوس الخمر فى حانته المتواضعة ، وتارة أتسكع متشرداً فى طرقات القاهرة . . ! !

إن صناعتى ياسيدتى تحتم على أن أعيش قبل أن أكتب . . أن أمارس الحياة ، وأنحدر إلى أعماق النفوس ، لأخرج أخيراً وفى يدىّ بضاعتى التى أتاجر فيها . . ! !

. . .

معذرة ياسيدتى على هذا الاستطراد ، فإنى أتصور آيات السأم وهى تلوح على محياك الفاتن ، وأشعر بأن الضجر قد بدأ يستولى عليك ، ويبدو فى حركة عصبية من يدك البضة ذات الأنامل الوردية وأنت تسوين خصلات شعرك الناعم المتهدل . . إنى أدرك أن الشوق قد راودك نحو هذه القصة التى سأقصها عليك ، وأدرك أيضاً أنك تضيقين بالانتظار ، وتتلهفين على كل جديد فى الحياة . .

إنى أنتظر الآن مقدم بطلة قصتى ، فقد واعدتنى على أن أنتظرها فى هذا المقهى ،

لتأخذنى إلى بيتها ، فتستطيع أن تقص على فى هدوء المكان وبعيداً عن نظرات الفضوليين قصتها . . وتضع بين يدىّ صفحات حياتها . .

إنها فتاة تسكن فى بيت من هذه البيوت المتواضعة . . فتاة تحترف التمريض . . تعيش بالنهار وتموت بالليل . . !؟ حياتها خرافة عجيبة من صنع الأقدار . . !؟

فلتنتظريها معى ياسيدتى لحظة ، فإنى أرى شبحها وهو يسعى نحوى من بعيد . .

. . .

ماذا قالت لأمها حين قدمتنى اليها . . ؟ إنه طبيب يعمل معى فى المستشفى ، أعذريها ياسيدتى على هذا الكذب ، فإنه أصبح من أسباب حياتها . . وصافحتنى الأم فى ترحيب وقدمت لى قدح القهوة ، ثم تركتنا وانصرفت إلى شئون بيتها . .

وقالت صاحبتى تقص قصتها . . وبين يدى وضعت كتاب حياتها المغلق . . !

. . .

هذه هى الصفحة الأولى من صفحات حياة . . !

ذات صباح فى إحدى المستشفيات . . فتاة جميلة فى الثامنة عشرة من عمرها ، ممرضة شابة حسناء فى ثيابها البيضاء الناصعة ، ملاك من ملائكة الرحمة يطوف بالمرضى يهبهم الحنان والبسمات . . لقد هبت عاصفة هائلة على القاهرة والمدن المصرية . . وباء يملأ البيوت بالعويل ويفعم المستشفيات بالمرضى . . .

حمى التيفوس تتسلل ميكروباتها الدقيقة المتناهية فى الصغر لتنفذ الى الهيكل البشرى الجبار ، فتتركه فى لحظات سريعة حطاماً ، ، قد يسعى إلى الحياة من جديد ، أوقد يكون مصيره الى الظلام الأبدى العميق . . أناس يستقبلون أجله عادوا ، وأناس يودعون أحبة رحلوا . . !!

فلسفة الحياة والموت فى أجلى صورها . . قبور تفتح كل يوم لتلتهم مئات من زحام البشرية الهائل ، لتخلى مكانه لنبت جديد . . ! !

العمل فى المستشفيات ليل نهار . . مئات الأجساد المتكدسة تحت الأبنية وفى الخيام . . نضال عنيف جبار بين الحياة والموت ، رسل الحياة من أطباء وممرضات يكافحون فى جبروت قوة الميكروب . . العقل البشرى يقف يائساً أمام ذرة ضئيلة تسخر من ذكائه وهو الذى استطاع أن يخترع (الراديو) ويحطم الصخر ويطير فى الجو . .

وهى . (حكمت) . تمضى مسرعة الخطى بين أروقة المستشفى تستقبل المرضى ، وتؤدى عملها النبيل فى حرارة وإخلاص . . إنها إحدى مجندات الرحمة ، تكافح فى تمرد شبح الموت القاسى . . .

وهذا الذى تراه . . من هذا المريض . . ؟ ! إنه واحد من عشرات الذين أقبلوا يئنون ويهذون تحت قسوة الحمى . . ما أجمل هذا الشباب وما أقسى المرض الذى يجرؤ على الدنو من التماثيل الآدمية الرائعة فيشوهها . . .

وأستقبلت الممرضة مريضها الشاب ، وقلبها يئن ويتألم . . كم من أمثال هذا الشاب قد أقبل ، وأهله يتعلقون بأهداب الأمل فى أن يعود اليهم من جديد ، ولكن . . . ما أقسى تصاريف القدر ، إنهم — وا أسفاه — كانوا ينتظرون ؛ وكان انتظارهم يطول ويطول ، ولا يعود اليهم الحبيب المنتظر ، بل تعود اليهم جثة هامدة يحملونها إلى المقر الأخير باكين معولين .

ولكن يا إلهى . . حرام أن يذبل هذا الشباب . . يا إلهى هبه الشفاء . . حقق هذا الأمل . . إنه نداء ضعيف من فتاة مسكينة تضرع به إلى السماء . . ترى هل تستجيب السماء لهذه الضراعة اليائسة . . ؟ وتحقق الأمل ، وأجابت السماء رغبة صوت ضعيف طاهر ارتفع اليها ذات يوم . . وأبل « الملازم أول محمود صلاح » من مرضه ؛ وبدأ يستعيد قواه ، ويستقبل الحياة نضراً باسماً . .

وتوطدت أواصر صداقة قوية بين المريض وممرضته . . صداقة كانت نتيجة صلة

دامت ليالٍ طويلة كانت تسهر على راحته إيانها وتمنحه من عطفها وحنانها ما وسعت نفسها أن تهب لمخلوق . .

وعند باب المستشفى ودعته يوم غادرها ، وقد اتفقا على موعد باللقاء . .

. . .

هذه هى الصفحة الثانية من صفحات حياة . . !

لقد تطورت الصداقة إلى حب .. إن كل صداقة بين رجل وامرأة مصيرها إلى هذه الغاية . . !؟

لقد أحب الملازم أول محمود صلاح الممرضة الحسناء حكمت شوقى .. ودعاها ذات يوم الى مسكنه . . إنه يسكن وحيداً ، شاباً عزباً غادر أسرته فى الريف وأقبل الى القاهرة للدرس والتحصيل ثم انتظم فى سلك رجال الجيش . .

لقد دعاها للعشاء ، وقبلت دعوته فى اطمئنان . . إن الصلة العذبة التى كانت بينهما فى المستشفى إبان مرضه ، قد جعلتها تثق فيه كل الثقة ، فلبت دعوته مطمئنة آمنة . .

وتناولا العشاء معاً .. وألح عليها ان تشاركه فى احتساء قليل من الخمر فامتنعت ، ولكنه أصر فشربت ... وشربت . . ولم تعد تشعر بشىء بعد ذلك .

. . .

هذه هى الصفحة الثالثة من صفحات حياة . . !

لقد استيقظت الفتاة من حياتها فجأة لتجد أن مريضها الشاب ، الضابط الوسيم الجميل قد سلبها أعز ما تملك فتاة . . ؟ !

كيف حدث ذلك ؟ كيف سولت له نفسه أن يفعل ؟ أين الثقة التى وضعتها فيه ؟ أين ذهب ذلك الحنان الذى منحته اياه ؟

كيف تحول الضابط الشريف الى لص حقير ؟ ! يختلس شيئاً لا حق له فيه ، دون وازع من ضمير أو من خلق نبيل ...

وتذكرت حديثه المعسول اللطيف .. ألم يقل لها أنه سيتزوجها ، عندما أفاقت الى نفسها ومضت تنشج وتبكى ...

وظلت تتردد عليه وهو يراوغها ...

ومر شهر ... وترادفت شهور ... وما زال الذئب يراوغ ، وما زالت الشاة المسكينة تأمل وترجو .. ! وخدمها الحظ ، فلم تبدو عليها بوادر الحمل ، كانت تبدو كفتاة وإن كانت فى أعماقها امرأة ... ؟ !

وذات يوم كانت فى زيارته ، فطرق الباب ، فأجفلت ، ولكنه طمأنها وخلفها فى غرفة النوم ، ليفتح الباب ... وسمعت وقع أقدام امرأة تدخل غرفة الصالون ، ثم تناهى الى سمعها صوتها الثائر وهى تصب على الضابط نقمتها .. كانت تقول له :

ـ لقد ضيعت مستقبلى ، هدمت حياتى .. أهكذا ستتركنى بعد أن سلبتنى شرفى ومزقت عرضى .. ! ؟

وكاد يغمى عليها ، وتأوهت مرتاعة حين أدركت أنها ليست الضحية بل هناك ضحية أخرى .

ومرت ساعة ، وخرجت الزائرة ، وأقبل إليها متقعاً مرتعد الأطراف ، فثارت عليه وقذفته بكلام بذىء ، وبصقت فى وجهه ، ثم تركت مسكنه الملوث وفرت إلى الطريق ...

. . .

هذه هى الصفحة الرابعة من صفحات حياة .. !

كانت المسكينة تريد أن تنتقم ، ولكنها كانت تخشى الفضيحة : إن لها شقيقاً

سوف يقتلها لو عرف الذى حدث ، وهذا أمر مريعة بالقلب تخشى أن تموت من هول الصدمة . . ثم ماذا . ؟ لم تكن هى الضحية الوحيدة ، كانت هناك الأخرى ... ثم ثالثة أيضاً ...

لقد أغوى لص الأعراض فتاة أخرى ، وفعل معها كما فعل مع السابقتين ، ولكنها فازت وانتقمت ... لقد أرغمته على زواجها ... كان بين يديها ما يثبت جريمته ، ورفعت الأمر إلى القضاء ، فتزوجها مرغماً ...

أية نهاية عجيبة ؟ ! لقد استطاعت فتاة جريئة أن تقلم أظافر الذئب وتسوقه إلى حظيرتها... وكانت هناك فتاتان تسعيان الى المجهول تدمى أقدامها أشواك الطريق ...

. . .

هذه هى الصفحة الخامسة من صفحات حياة !

لقد يأست المسكينة من كل شىء... يأست من حياتها ومن المصير الذى ينتظرها ...

لقد خدعها رجل نذل فى قسوة ، ثم فر وتركها وحيدة تتعثر ... تشعر بالهلع الشديد حين تفكر فى المستقبل ...

وأخذت على عاتقها أن تسخر من كل شىء ، وأن تحطم حياة كل رجل تلقاه ...

لقد تحطمت ، فيجب أن تحطم...

. . .

هذه هى الصفحة السادسة من صفحات حياة !

فتاة تعيش فى خدعة ضخمة ... فتاة تقف على الهاوية !

أهلها يعلمون أنها فى المستشفى ، قد وقفت حياتها على البر بالمرضى والعطف عليهم ، وهى تمضى فى طريقها الذى رسمته لنفسها ... تخلع ثياب ملائكة الرحمة لترتدى ثياب

خادمات الشيطان ، وفى لحظة تستحيل الفتاة الوادعة الطيبة الى امرأة مستهترة تسخر وتلهو وتعربد ...

أى مصير ينتظرها ؟ وأى نهاية ستكون خاتمة لحياتها ؟ هل ستجد يوماً ذلك الملاك الذى ينتشلها، ويغفر لها زلتها ويمحو سطور الشقاء من شبابها أم ستظل تهوى وتهوى الى ما لا نهاية ؟

. . .

ياسيدتى ان الصفحة الأخيرة من قصة حياة هذه الفتاة ما زالت بيضاء ناصعة تنتظر أنامل القدر لتخط عليها كلماته الأخيرة ؟ !

قصص من لبنان

« زهور » ...

أى عبير ينبعث من هذا اللفظ ؟ إن العطر ليتضوع منه لمجرد النطق به !

إن زهور ، وهذا اسمها ، زهرة نضرة رائعة نبتت فى إحدى خمائل لبنان ، ثم حملتها إلينا النسائم الندية عن تلك الربوع الخالدة ! !

هى فتاة ملهمة ، منحتها الطبيعة فتنة الجمال الطاغى وعذوبة الصوت الساحر .. شادية أخاذة الصوت ، صوتها خليط من خرير المياه وتغريد الطيور بين كئوس من الفضة . !

والآنسة « زهور » تقص علينا فى الصفحات التالية إحدى قصص الحياة والحب ، شهدت حوادثها وعرفت أبطالها ...

قالت زهور وهى تسوى بيدها خصلات شعرها المتهدل ، وقد افتر ثغرها عن طيف ابتسامة ، كأنه يتبوع من العطر ... !

هكذا بدأت القصة ... ذات صباح مبكر ، فقد استيقظنا من النوم فجأة على صوت

عويل ينطلق من دار أحد الجيران ... أفقت من نومى مبهورة الأنفاس، وهبطت من فراشى مضطربة أتساءل ما الذى حدث، ومضيت الى النافذة، فدفعت مصراعيها وأطللت على الطريق، وبعد حين عرفت كل شىء . . لقد مات زوج صديقتى (سميرة)، مات فجأة، بالسكتة القلبية . . كانت صدمة قاسية، جعلت قطرات الدمع تتساقط من عينى سريعة متلاحقة . . أية فاجعة هائلة . . إن صديقتى المسكينة كانت قد تزوجت من شهرين، ولم تخلع بعد عن جسدها ثياب الزفاف . .

هكذا أراد القدر أن ترمل العروس، وهى فى أولى مراحل السعادة . . وخلفت دار زوجها وأهله، عروس تتعثر فى أذيال سعادتها الضائعة .

وقال أهل الزوج:

إن الشئوم يطل من عينيها . . إنها مقدم نحس وسوء . . ! !

هل أنت مصغ . . ؟ أرجو أن تسمع القصة . . ! !

قلت : يالها من بداية غريبة . . إنى مصغ بكل نفسى . .

قالت « زهور » أنصت ودعنى أتمها . . ! !

وعادت سميرة إلى بيتهـــا، وشاركت أخاها مسكنه من جديد . . لم يكن لها من الأشقاء سواه، فقد مات أبواهما وخلفاهما وحيدين . .

كانت سميرة فى الخامسة والعشرين من عمرها تقريبا، مخلوقة باهظة الجمال، خلابة الحسن، وكان جمالها الرائع الصارخ يلقى حولها شعاعاً من الفتنة أينما سارت . . قد لا تصدق إذا قلت لك أن مرآها كان يصعق بعقول الرجال، ويُذهب الرشد . . ومهما أوتيت من بلاغة الحديث فان استطيع أن أصف لك سحر نظراتها وجمال عينيها وفتنة الخدين الورديين وروعة الشفتين الشهيتين، وإشراق المحيا الرائع القسمات، ورعة القوام البديع التقاطيع، الصارخ بالأنوثة الفياضة الكاسحة، وإن محاولتى وصفها لك لتبدو من العبث . . ولو كنت قد رأيتها لتشرد نومك، وضاع رشدك،

ونسيت ماضيك ومستقبلك ، وأصبحت مخلوقاً مشرداً . . ألا تصدق ما أقول . . ؟

قلت : بل أصدق . . والحمد لله كثيراً على أنى لم أرها ، وأقسم بجمالك أنى قد نسيت الآن ماضى ومستقبلى ، وليس فى رأسى إلا صورة هذا الجمـــال الطاغى وهو يسطع بوهج كأنه اللهب . . !!

قالت : انتظر واسمع . . !!

لم يكن لها من الصواحب سواى ، فقد كان أخوها غريب الأطوار ، وكان يؤثر عدم الاختلاط ، فكانت سميرة تعيش فى وحدة ثقيلة طويلة ، تخلو إلى نفسها دائماً فى حديقة البيت ، تجلس شاردة مستغرقة فى أحلام شبابها المكبوت الحزين . . كانت تعشق نفسها ، وتهيم بجمالها ، كانت تتصور أن العشب يئن تحت خطواتها حين تطأه بقدميها الصغيرتين الجميلتين ، وأن الدنيا كلها تحبها وتهيم بحسنها ، وأن الرجال يسكبون الدمع عند قدميها ويمرغون جباههم عند أطراف ثوبها . . لقد كانت المسكينة تشتهى الحب ، تحلم به ، ولم تكن قد أحبت من قبل ، فقد تزوجت برغمها جرياً على تقاليد الأسر فى الشرق . .

ولما فاز « توفيق » صديق أخيها ، بإجازة الطب ، أصبح طبيباً للأسرة ، وكان يقطن فى بيت مجاور لهما . .

وكانت تراه من وراء حجاب . . كان فى غض الشبـــاب ، جميل الطلعة ، رقيقاً لطيفاً ظريفاً . . وخفق قلب المسكينة . . وعرفت الحب لأول مرة . لقد أحبته دون أن يعلم ، ودون أن تحاول أن تتحدث إليه بهذا الحب ! !

هل أنت منصت . . فيم تفكر . . ؟ !

قالت : ياليتنى كنت توفيقاً . . .

قالت « زهور » : لاتعجل . . انتظر واسمع . .

ذات يوم مرضت سميرة ، وجاء الطبيب يعودها ، كانت تلك أول مرة تلقاه فيها وجهاً لوجه ...

كانت قد اضطجعت على الفراش واهنة ، فاقترب منها وأمسك بيدها يجس نبضها ، وكانت أناملها ترتعش . . سألها ضاحكاً :

— ماذا ؟ أتخافين الطبيب . . ؟

ولو كان يعرف لأدرك أنها لاتخشاه وإنما تحبه ، وكانت تتمنى لو انه كان يمسك بمعصمها ليضع في إصبعها خاتم الخطوبة !!

وأطال التحديق في محياها ، وهو يربت عليها أن ليس بها شيئاً إنما هو وهم طارىء . .

ومرضت سميرة مراراً ، وأبلت من مرضها مراراً ، وكان الطبيب الشاب يعودها دائماً ، ويعطف عليها ، ولكنها لم تجرؤ على أن تصارحه يوماً أن بيده وحده سر شفائها وسر سعادتها . . !

وجاء الطبيب يوماً يزور أخاها ، وأخبره بأمر ثم مضى . . وقال لها أخوها إن صديقه سيتزوج وإن الليلة ليلة عرسه . .

وعرفت أنه سيتزوج من فتاة ثرية . وقد خطبها من أجل مالها وما تملك من عقار وذهب . .

ولما أقبل الطبيب عصر ذلك اليوم ، ليصحب أخاها ، هنأته سميرة وتمنت له أطيب الأيام . .

. . .

ولما شرعت موسيقى العرس تعزف ألحانها ، كانت سميرة قد ارتدت ثياب زفافها ، وتحلت بجواهرها ، ثم سكبت قليلا من السم في كأس من النبيذ ، وجرعته حتى الثمالة . .

واضطجعت على فراشها . . هادئة باسمة . . وظلت تنصت إلى أنغام الموسيقى وهي تأتي من بعيد . . وظلت الأنغام تخفت وتخفت حتى تلاشت . .

وأغمضت عيرة أجفانها ... إلى الأبد . .

كانت ليلة عرسها هي الأخيرى ... !!

. . .

قالت زهور : هل أعجبتك القصة ؟

قلت : هي قصة شيقة ممتعة ...

وحين ودعتني زهور كان الدمع يتألق في عينيها الصافيتين ، وقد افتر ثغرها عن طيف ابتسامة ، كأنه ينبوع من العطر ... ! !

فى الظلام

كنت حين ذاك فى التاسعة عشرة من عمرى ، وقد بدأت أفتح عينىّ رويداً رويداً على حقائق الحياة .. كنت شاباً قوياً ، ناضر الشباب ، يبتسم للدنيا يبتسم للغد .. لا يرتاب فى أن الحياة جميلة ، ولا يظن أن هنالك شيئاً يدعو إلى الكآبة والألم . .

كانت حياتى تمضى على هذه الوتيرة . . شباب زاهر ضاحك يسخر من الأحداث والمحن . . حياة طيبة أنفقها بين أسرتى الوادعة ، وقد حبانى القدر بعطفه ، فنشأت بين هذين الوالدين .. أم حنون ما رأيت مثل حنانها فى أمهات لداتى ، وأب عاطف كريم... ولكن . . . !

ولكن الحقيقة التى روعتنى حين تخطيت أعوام صباى أننى أدركت أن أبى كان عريداً سكيراً ، حتى ليبدو دائماً . . أغلب لياليه . . ثملاً يهذى ويترنح . .

كان أبى تاجراً مشهوراً من تجار الأقمشة ، قد وهبه القدر حظاً هائلا ، فربح من تجارته وأصبحت تدر عليه مالاً وذهباً ، وكنت قد فرغت من تعليمى الابتدائى ، فآثر أبى أن أشاركه العمل فى تجارته حتى أكون خلفاً له إذا ما شاءت الإرادة الإلهية أن تنتهى أيامه فى تاريخ هذه الأرض . .

وهكذا كنت أقضى نهارى فى دكان أبى مثلى مثل غيرى من العمال ، حتى إذا انتهى اليوم عدت الى الدار قبل موعد عودة أبى بساعات . .

كان أبى حين يفرغ من عمله يمضى الى حانة ينفق فيها شطراً من مساء يحتسى الخمر ، وكنت أعود من عملى فأجد أمى فى انتظارى ، شاحبة الوجه كعهدها ، من فرط ما تلاقى من مشاق العمل فى البيت ، فقد كان لى أخوة كثيرون يصغرنى ، ومما تلاقيه من أهمال

أبي ومن صمودهم وتكرانه ، فتضمني اليها ، تطبع على وجنتي قبلة ، كأنما هي تجد في حبي لها وفي وجودي الى جوارها دائماً ، عوضاً عما تلاقيه من إنكار أبي وقسوته . .

كانت أمي لا تعرف في الحياة إلى بيتها . . زوجها وأولادها . . كانت امرأة كاملة بمعنى الكلمة ، تقضي نهارها تعمل على راحة هؤلاء ، لاتفرغ من يومها ساعة . . . ولم يكن عندنا خدم يساعدنها في شئون الدار ، فأحضرت أمي فتاة يتيمة من ذوي قرباها تدعى (فوزية) لتعيش معنا ، وتساعدها في أعمال البيت التي لا تنتهي . .

. . .

خاطر واحد كان يشغل تفكيري دائماً ، هو أن أمي ليست سعيدة ، وأنها لم تستشعر السعادة يوماً فهي تعيش بين زوج عقوق جامد وبين أبناء تشغل مطالبهم كل وقتها . . كانت تعيش لتعمل . . لتعمل دائماً . . كانت كبقرة الساقية تدور وتدور . . هكذا كانت أمي المسكينة تعيش لاتفوز بمتعة ولو ضئيلة من متع الحياة . .

وأدركت في لوعة ، أن هناك أناس كثيرون يعيشون هذه الحياة ، يظنهم الناس أحياء ، ولكنهم جاءوا ليثبتوا وجودهم ثم يمضوا كما جاءوا ، بعد مرحلة فارغة جوفاء هي طريق موحش يجذب إلى النهاية المحتومة . . .

. . .

وإلى هذه الفترة من حياتي كان كل شيء يمضي هادئا صافياً ، كما تبـــدو السماء في الصيف ، سوى تلك الغيوم التي كانت تلوح في سماء حياتي ، حين أخلو إلى نفسي ، فأذكر ما تعانيه أمي وما ينوء كيانها الضعيف تحت ثقله ، وحين أفكر في مدى عذابها وحرمانها ، وما تلاقيه صابرة صامتة . .

ولكن هذه الغيوم . . غيوم الأحزان ، كانت لا تلبث أن تنقشع كما تنقشع

سحب الصيف الشفيفة . . كان شبابى الجائش لا يلبث أن يطويها فى فورته ، ويذيبها بحرارته . .

. . .

وذات مساء أقبل أبى مبكراً . . مبكراً جداً ، ولم يكن ليعود إلى البيت إلا بعد أن تمضى من الليل ساعات ، لم يكن ليعود مبكراً أبداً . . وكان باسم الوجه ، وأقبل يحيينى فى عطف ومحبة كدأبه دائماً ، ثم مضى يتحدث إلى أمى فى حنان لم أعهده منه قبلا ولم تعهده كذلك ، فنظرت إلىّ ونظرت إليها . . كان فى نظراتها الكسيرة مزيجاً من الأمل والرجاء والتوسل ، وكان فى نظراتى دموع تكاد أن تنفجر وشفقة وعبادة ...

قالت لى عيناها فأدركت ما يجول فى أعماقها . . فهمت عنها كل ما كان يعتمل فى نفسها ، ولعلها أدركت ما تهمس به عيناى فأطرقت...

حدثتنى عيناها ... وأجابت عيناى الحديث ... وهل هنالك أبلغ من حديث الأم والإبن ... إن رابطة الأمومة هى الرباط المقدس الوحيد فى هذه البشرية الآثمة ، هى بقية من عطر السماء يضوع الأرض الخانقة بالعبير المقدس ... !

وخلا أبى بأمى لحظات ، وقال لى أشياء ، ولما أقبلت رأيتها مبتهجة باسمة .. مسكينة هذه المرأة ، لقد أضفى الهناء على محياها الشاحب نقاباً وردى اللون ، فاضحت نضرة كالزهرة فى لحظات ...

مضت تنتقل فى أرجاء البيت باسمة ضاحكة ، فخفق قلبى بين ضلوعى فرحة وهناء .. إننى أرى أمى — لأول مرة — ضاحكة الثغر مبتهجة ... ما أسعدنى ! أيكون أبى قد عاد الى رشده ، فأدرك ما قدمت يداه الى المرأة التى أحبته وأخلصت له الود ، وسهرت على راحته ، فخلف وراءه غيه وضلاله ، ليعود مع المساء كل يوم ليهبها من عطفه واهتمامه ومحبته بعضاً من ذلك الدين الذى يثقل عنقه لها ...

واستيقظت فى الصباح على أنفاس أمى ، وقد أقبلت الى غرفتى ، لتوقظنى بقبلة على جبينى وجلست الى جانبى على الفراش ، ثم مضت تحدثنى ... قالت لى أن أبى قد أسر اليها بالأمس أمراً أسعدها كثيراً ، ولا شك أنه سيسعدنى ...

— إنه ينوى أن يزوجك ... يريد أن يفرح بك !

ثم أردفت : وما أشد فرحتى يا صغيرى !

قلت لنفسى : أهذه حقيقة أم بقية من خيالات الليل وأحلامه مازالت تطوف بمخيلتى الغافية ولكن هذه أمى جالسة الى جانبى تتأمل وجهى الساذر الصامت وعلى شفتيها بسمة مطمئنة ... أحقاً قد عزم أبى على أن يزوجنى ... هل آن أخيراً أن أصبح رجلا كامل الرجولة ، مسئولا عن زوجة وأسرة .. لاشك أنها فكرة تشيع فى النفس غبطة وهناء ... زوجة الى جانبى تحنو على وتوفر لى أسباب الهناء ... تشاركنى فى كل شىء ... فى حياتى فى أفكارى فى غرفتى فى فراشى .. تبدد وحدتى الطويلة ، تمحو بسماتها شجونى ، تمسح بأناملها الناعمة عن جبينى عرق الكفاح .. تحنو على اذا مرضت ، تسهر الى جانبى ... تؤازرنى فى نجاحى وتخفف عنى فشلى ...

وتذكرت ما جاء فى القرآن الكريم ، وخلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، فشعرت بسعادة هائلة ، تبدت فى بسمتى العريضة وأنا أقول لأمى مخلصا :

— فكرة موفقة مادامت تسعدك وهى أيضا تسعدنى ، ولكن من الموعودة ؟ !

قالت أمى : لقد تحدثنا فى ذلك ووقع اختيارنا على فتاة جميلة نبيلة الخلق ، من ذوى قرباك ، فمن الخطأ المبين أن يقدم المرء على زواج من لا يعرف ... ألا تحدس من هى ؟ !

قلت سريعا : كلا .. لا أستطيع ...

قالت : هى فوزية

فكرت قليلاً ثم أجبت : فوزية التى تعيش معنا... لا بأس... هى فتاة طيبة ، كريمة السجايا ، جميلة ، وما دامت تعجبك فهى تعجبنى...

ومالت علىّ أمى تقبلنى . . .

. . .

الليل يلقى وشاحه الأسود على المدينة . . . دارنا تموج بالنور . . . الظلام يتراجع وجلاً إزاء الثريات الوهاجة العديدة ... وفود الزوار ... المهنئات والمهنئين . . .

باقات الورد تضوع الدار بالعطر... الموسيقى تشنف الآذان... أصوات الغناء تبدد صمت الليل الساجى . . .

الليلة ... الليلة الموعودة ... ليلة الأمل ، والشباب ، والحب ... ليلة الزفاف... الحد الفاصل بين الوحدة والحرمان وبين الأنس والمتعة ... بين الصحراء القاحلة وبين الفردوس المنتظر !

أنا وعروسى جنباً الى جنب . . . قلبى يخفق من الفرح . . .

أمى تشاركنى هنائى . . أبى غارق فى كؤوس الخمر ، ثم لم أعد أراه . .

عروسى تجلس إلى جانبى صامتة هادئة ، لا تتحرك ولا تبتسم . . قلت لنفسى :

— إنها خجولة . . ما أقسى هذه الليلة فى حياة العذراء حين تجد نفسها إلى جانب رجل غريب . . وحيدة فى غرفة مغلقة . . ثم لا تستطيع أن تفعل شيئاً إلا أن تسلم له نفسها . . !!

. . .

وانفض الحفل . . ومضى الزوار . . وأطفأت الأنوار ، وهدأ البيت ، واستعاد الليل الهادىء الساجى هدوءه وصمته . .

وخلوت بروحي في غرفتي . . ضممتها إلي . . قبلتها . . دفنت وجهي في شعرها المعطر . . ولكنها أجهشت بالبكاء فجأة . . دهشت وذهلت . . ربت على ظهرها في حنان ، وضممتها إلى صدري في محبة . . وقبلتها ..

كانت ترتعد كزهرة في مهب الريح . . عطفت عليها . . جففت دموعها بمنديلي . . أجلستها بين ذراعي كأنها طفلتي . . واسيتها . . خففت عنها . . سألتها ما يحزنها في ليلة كهذه هي ليلة الهناء الموعود . . سألتها فقالت لي . . ياليتها ماقالت . . ! ماذا قالت . ؟! لا أدري !!

كل ما أذكره الآن أنني ظللت ليلتي كلها يقظاً ، جالساً على حافة الفراش ، أحدق فيها وقد تكومت على الفراش بجوار الحائط كأنها جثة هامدة . .

ما كان أطول الليل تلك الليلة . . كان الليل يبدو كعام طويل من الأحداث المؤلمة ، كأن الزمن قد وقف عن سيره . . كنت أنتظر بزوغ الفجر كما تنتظر قرية من الجياع وصول المدد . .

قلت لنفسي وأنا جالس على حافة الفراش في ظلام الغرفة :

ـ أيجسر أحداً حتى ولو كان من القديسين أن يسيء الظن بهذه الفتاة الطاهرة المحيا التي تبدو أشبه بالملاك . . ولكن لعل التبعة لا تقع عليها ، وإنما على الرجل الذي أوردها موارد الخطيئة ، وخلفها وفي أحشائها جنين يتحرك .. في الشهر الثالث من عمره...

ولكن مَنْ الرجل . . ؟ ! إنه أبي . . ! ! أبي التي تزعم أنه أقبل ثملاً ذات ليلة ، فأرغمها على الخضوع له ، فلم تستطع إلا الإذعان . .

ولكن . . لماذا أذعنت . . ؟ مهما يكن من أمر فهي شريكة له في إثمه . .

إن رأسي يحترق . . المرئيات تدور أمامي كالأطياف ، والليل لا يريد أن ينتهي كأنما قد قيدته بي أغلال من حديد . .

وأخيراً أشرقت الشمس وأرسلت ضوءها ، فبدت الحقيقة أشد بشاعة ونكراً . .

. . .

لم أكن قد اتخذت رأياً حيال ما سمعت . . كنت قد أنفقت بقية ليلتي سادراً في خليط مضطرب مشوش من الأفكار . . صدمة هائلة أذهلتني عن الحقيقة البشعة التي جابهتني فجأة كالشبح المروع ، فنسيت كل ما حدث وما ينتظرني . . كنت أجلس على حافة الفراش كأنني تمثال لا يشعر ولا يحس ، كنت كريش تحت تأثير مخدر ، وهذه إحدى هبات الله ، إذ يذهلنا ساعة عن مدى ما يصيبنا حتى لا تقتلنا الصدمة . .

وما كاد الصباح يشرق حتى فررت من غرفتي كما يفر المرء من مدينة زارها الوباء ، فخلفها وشبح الموت يسعى بين طرقاتها الخالية ، ليطوي في ردائه الأسود كل من تحدثه نفسه بالتجوال في مدينته التي نشر عليها لواءه . .

فررت من غرفتي . . من عروسي التي ترقد في فراشي . . من زوجتي أمام الله والناس . . فررت كما يفر السليم من الأجرب ، فررت من الخطيئة . . من الدنس . . من الوحل الذي ارتبط بي ، في شريعة الناس والقانون . . !

ولقيتني أمي بوجه ضاحك بشوش . . ضمتني إليها وقبلتني ، وشعرت بنظراتها تكاد تلتهمني ، ورأيت سحابة من الشحوب تغشى وجهها النبيل ، وأدركت أن قد هالها ما رأته على وجهي من شحوب وإعياء . .

لم أر أبي فقد غادر الدار مبكراً ، زاعماً لأمي أنه سيرحل إلى الاسكندرية ، ليقضي هناك أياماً ، ريثما يستلم من الميناء بعض الأصناف التي وردت باسمه من الخارج . . !

حمدت الله كثيراً لانني لم أره . . كيف كنت ألقاه لو رأيته ؟ وكيف كنت أتحدث إليه . ؟ لم أستطع التفكير في ذلك ، فلم أكن لأفكر يوماً أن أثور في وجه أبي . . كان أبي عطوفاً عليّ أشد العطف ، وكان يحبوني دائما بحنانه ورعايته حتى كنت أخجل أحيانا من مصارحته بإحدى رغباتي . .

. . .

لم ألبث أن غادرت الدار . . بين دهشة أمي وجزعها . .

غادرت الدار ومضيت أهيم في الطرقات على غير هدى . . كنت مضطرب

الأعصاب، ثائر النفس، مزدحم الخواطر . . لا أعرف كيف تغيرت الدنيا فى ناظرى غير الدنيا والناس غير الناس . . كنت أضرب فى الطرقات لا أعرف إلا أين أنا ذاهب . . أوفى أى شىء أفكر . .

كان صخب السابلة وضجيج الطرقات يتناهى إلى سمعى كأنه همس خافت يأتى من بعيد . . كان هنالك طنيناً هائلا كدوى عجلات قطار سريع يطرق سمعى فى وجيب يرتفع رويداً ثم لايلبث أن يخفت ليعود من جديد . . وكانت أوجه السابلة . . عشرات الوجوه التى تمر بى تبدو شاحبة كالأطياف . . لم أكن أرى أمامى سوى ثلاثة وجوه تلاحقنى أينما ذهبت . . وجه أمى . . النبيل الطاهر السموح . . ووجه أبى العطوف المخاتل الغامض ثم . . ثم وجه فوزية . . وجه زوجتى المتوسل الباكى الحزين . .

ومضى النهار . . وساعاته تحملنى من طريق إلى طريق . . من شارع إلى شارع . . أمضى تارة بطيء الخطى ثم أسرع تارة ثم اتسكع تارة ثم أقف تارة ، أستند إلى شجرة ، أتطلع إلى لاشىء كأبله معتوه . . .

حقيقة واحدة آلمتنى . . هى أن أبى غرر بى وخدعنى ، وجعلنى وسيلة لإنقاذه من الفضيحة . . ولكن لماذا فعل ذلك ؟ كيف سولت له نفسه أن يفعل ؟ لا أدرى . . ! ! ومن ذا الذى يستطيع أن يدرى . . ؟ إنهـــا الطبيعة البشرية . . إنه الطين القذر الذى يربطنا بالأرض هو الذى يدرى . . ! لاشك أن أبى قد تورط ، ثم استعصى عليه الحل فآثر الفرار ، وبحث فى ذاكرته عن ذلك الذى ينقذه من زلته ، فلم يجد سوى ابنه . . ابنه الوديع الخجول المرهف المشاعر . . ابنه الذى يحبه ويحبوه بعطفه ورعايته ، فاختاره وقرر عليه حكمه . .

ما أقدر الطبيعة الإنسانية على التنكر . . إن الإنسان لمعقد أشد التعقيد ، غيهب مظلم يستعصى على عقول الأنبياء والفلاسفة أن تنحدر إلى أعماقه . . ! !

* * * * *

وغربت الشمس . . وبدأ الشفق يرسل شعاعه الدامى على محيا النهار الراحل . .

ومازلت أضرب فى الطرقات على غير هدى . . وأحسست بهواى تخور وبحلقى يجف ، شعرت بظمأ هائل . . فتطلعت حولى أبحث عن مكان ألوذ به ، فوقع بصرى على حانة حقيرة ، ولجتها ، ثم ألقيت بجسدى المكدود على أول مقعد صادفنى . .

كانت الحانة مفعمة بدخان اللفائف ورائحة الخمور ، وقد جلس كل الى كأسه يجرعه فى هدوء ثم يعيد الكرة مرة بعد أخرى . . كان يبدو أن رواد الحانة جميعاً من نفايات الحياة ، بقايا من حطام البشرية الذى لفظته الطبيعة من ثغرها فألقته على قارعة الطريق . . كنت ألج حانة لأول مرة فى حياتى ، ولم أكن قد ذقت الخمر من قبل . . وجاء الساقى يحمل لى كأسى . . كنت ظامئاً . . فأفرغت الكأس فى جوفى . . ومرت دقائق شعرت خلالها بهدوء غريب ، أحسست بجسدى يخور كأن هنالك يداً ناعمة تهدهده . .

طلبت كأساً أخرى . . ثم ثالثه . . ورابعه . . واستحالت الدنيا أمامى إلى أطياف من الرؤى . . وأخيراً خلفت الحان ورائى وعدت أدراجى الى الدار . . كنت أمضى وئيد الخطى ، هادئ النفس ، سابحاً فى أحلام غريبة . . مبهمة . . جميلة . . نسيت كل شىء . . . نسيت الماضى والحاضر والمستقبل . . نسيت همومى وآلامى وعذابى . .

ولم أعد أذكر إلا ثلاثة وجوه . . تلوح لى شاحبة وسط هالة من الضباب ، ولا يلبث أن يختفى وجهان ، ثم يظل وجه عطوف حزين متألم هو وجه أمى . . يلوح لى من كل منعطف طريق ثم يمضى إلى جانبى . . يهمس لى بأشياء ويتوسل . . فأقول له :

ـ كلا . . لاتخف . . سوف أكون عند حسن ظنك ، لن أكون سبباً فى إيلامك . . يكفى شقائك وعذابك . . سوف أسكت ، لاتخف ، سوف أسكت من أجلك وفى سبيلك أيها الوجه المعبود . . أيها الانسان العزيز الحبيب . .

. . .

ألم تشرب الخمر يوماً وتدرك مدى تأثيرها الساحر فى جسدك ومشاعرك ؟ ألم تشرب الخمر يوماً فتعرف كيف تنسيك فى لحظات الدنيا ومن فيها . . تنسيك آثام ماضيك

ولوحة حاضرك وظلام مستقبلك . . تنسيك البشرية كلها . . تنسيك هذا العالم الغامض المجهول . . لم تكن الخمر لتكلفني كثيراً . . كانت النقود تملأ جيوبي دائماً ، كنت أمد يدي إلى خزانة أبي فأتناول ما أريده . . لم يكن أبي ليحاسبني في شيء . .

كنت أشرب الخمر . . أشربها في نهم عجيب . . كنت أبحث عن النسيان في أعماق الكؤوس . . وبدأت أنهار . . أنهار كما ينهار بيت من الرمال على الشاطيء . . ماتت أفكاري الجميلة . . اندثرت مثلي العليا . . هبطت درجات الى الحضيض . . !

كان المساء يجيء دائماً . . كل يوم عندما تغرب الشمس : وكانت النقود تجيء دائما . . من خزانة أبي ، وكانت الحانات تلتقي بين ذراعيها صرعى الحياة والأفكار والصدمات لتهبهم النسيان والسلوى . . كنت أريد أن أنسى ماينتظرني : أنسى كيف سأجد بعد شهور طفلا يسعى إلى الحياة . . هو أخي . . أخي في الحقيقة ، ولكنه سيكون إبني . . ابني أمام الناس ، وسيعيش عالة على اسمي مدى الحياة . .

كانت هذه الفكرة الهائلة البشعة تقربني كل يوم من الجنون خطوات ، لولا ذلك الإكسير الساحر الغامض الذي كنت أغرق فيه أفكاري وآلامي ، فأصبح في لحظات مخلوقاً شارداً ، لايحس ولايشعر . .

. . .

كنا ثلاثة نحترق في الأتون . . أمي وزوجتي وأنا . . أمي يؤلمها حالي ، وكآبتي الدائمة ، وولعي الشديد بالخمر التي لم أكن أقربها من قبل ، وانحطاط صحتي وتدهوري . . وزوجتي التعسة بما تلاقيه من إعراضي عنها واحتقاري لها . ثم أنا . بعذابي القاتل الرهيب . . وكنا ثلاثتنا نبدو صامتين . . أنا وزوجتي نكتم السر أعماقنا ، وأمي لا تدرك شيئاً . . ثم أبي . . بسيراته وإغراقه في الخمر وصمته . . وهكذا كنت أنتظر . . أنتظر كما ينتظر المحكوم عليه بالإعدام تنفيذ الحكم . . كنت يائساً من كل شيء . . حتى من رحمة الله جلّ وعلا . . !!

وذات يوم أقبلتُ مع المساء ، فألفيت أمي مضطربة قلقة ، ولم تكد تراني حتى قالت لي في جزع :

— لقد خرجت زوجتك من الصباح ولم تعد حتى الآن . . . أخشى أن يكون قد أصابها ضرٌ . . .

قلت لها : ألم تقل لك إلى أين ذهبت ؟

قالت : كلا . . لقد خرجت دون أن تخبرني . .

وبحثنا عنها كثيراً . . . ولكننا لم نوفق في الاهتداء اليها . . . ومر عام . . . وعامان . . . ولا أدري كيف كان مصيرها . .

وضاعت المسكينة في زحام البشر . . .

قال صاحبي وهو يصافحني :

— ألا تأتي معي لنشرب قليلا من الخمر . . ؟

قلت له : شكراً لك . . إني لا أشربها قط . . ! !

قال ضاحكا ضحكة مريرة : سوف تشربها يوماً ياصاحبي . . إذا أردت أن تنسى . . ثم خلفني ومضى . . وأنا أشيعه ببصري حتى طواه ظلام الطريق . . ! ؟

فى الطريق إلى المجد

« هذه القصة باقة زهر
متواضعة أقدمها بخشوع
إجلالا لذكرى المصريين
الذين سقطوا فى ميدان
الشرف بمجاهل السودان »

لست ناقماً على الحياة التى طوحت بى الى هذه الربوع النائية ، فهناك قضية كما يقولون يجب على الجيش حلها ، وعما قريب ستنتهى هذه الحملة ... وسنعود الى مصر يوماً .. ما .. ومع أن الحنين إلى كل ما خلفناه وراءنا يطغى على نفسى ، والشوق يكاد يدفع الدمع إلى عينى فإننى مازلت وأنا فى هـــذا المكان المنعزل أرقب غروب الشمس باعجاب أذكر كلمات القائد العام عندما خطب فى القوات المصرية قبل تحركها صوب « دار فور » يوم ٢٧ فبراير سنة ١٩١٦ ، وكنت أشعر مزهواً وأنا بملابس الميدان أنه إنما يخاطبنى قال « إن الغرض من هذه الحمـــلة هو الاقتصاص من سلطان دارفور لانضمامه الى أعداء الحلفاء فى الحرب وامتناعه عن دفع الجزية السنوية ، وإنكم كما أرى من خيرة الرجال وستعملون عملا عظيما يحفظه لكم التاريخ . . »

ومع كل فقد اجتازت قواتنا الحدود فى عدة جهات ، ولم نلتحم بالعدو إلا فى مناوشات تافهة حتى وصلنا بلدة « مليط » وحططنا رحالنا نستريح ونأخذ أهبتنا للمرحلة التالية . . وأقبل المساء جميلا هادئا ، فتسللت إلى طرف ناء من المعسكر لأكتب هذه السطور بعيداً عن ثرثرة صديق الملازم أول محمد حمدى ضابط مدفعية الحملة ، كان

يرهقني بأحاديثه ونكاته اللاذعة ويعيب على صمتي وتأملي وتفكيري الطويل . . كان أنيقاً يعنى بنفسه عناية فائقة . . جميلاً مرحاً لا يحمل هماً خلف وراءه أماً قلقة عليه تلاحقه رسائلها أينما سارت الحملة ويتلوها على دواماً أردت أم لم أرد . . ومع هذا يخيل إلى أحيانا أن صديقي حمدى على حق فى أفكاره التى يدين بها ، وأن على أن أنطلق من هذه القيود الخفية التي تكبلني فأضرب برزانتي وتأملي وتفكيري عرض الحائط ، وألهو وأمرح وأضحك من كل شيء كما يفعل صديقي . . ولكن هناك عينان تطلان على من السماء . . تلاحقاني فى غدوى ورواحى . . تشرفان على رجلاً كما أشرفتا على طفلا . . توجهاني حيثما تريدان . . . وتدفعاني إلى طريق المجد . . . والمجد دائماً !

لست أنسى ما حييت عيني أمى وهى فى ساعاتها الأخيرة ... عندما غشيتهما سحابتان قاتمتان حجبتا بريقهما الخاطف ، ولا أنسى كيف أسلمت روحها فى الهزيع الأخير من تلك الليلة الهادئة وأنا حائر لا أملك إلا الدعاء لها ... ومنذ ذاك الوقت وروحها ترفرف حولى أينما كنت تردد فى أذنى دواما أن أماشى طريق واحد لأسلكه سار فيه أبى وأجدادى من قبل ، ينتظرنى المجد فى نهايته ... وها أنا قد سلكته وإن أك فى بدايته ولست نادماً على ما فعلت ..

وأقبل حمدى نحوى وهو يصفر بشفتيه لحناً شائعاً ، وقد دس يديه فى جيبي سرواله ، فطويت أوراقى وجلس قائلا :

— إيه ده ياأخينا .. أنا دورت عليك لما دخت . تعرف إن البلد دى باين عليها هاديه والظاهر إنه مافيش معارك حتحصل هنا ... يا أخى الواحد عاوز يخلص ويرجع حالا ، أنا شاعر بأن قتل الناس وإبادة الجيوش مأمورية سخيفة لكن نعمل إيه ... تعرف انه وصلنى النهارده جواب من ماما ...

وقبل أن أترك له فرصة تلاوة رسالة والدته المسهبة علىّ قلت بإيجاز :

— ماتستعجلش فى الحكم كده ... يالله بينا أحسن أنا جعان ...

ورجعنا إلى خيمتنا ..

في فجر هذه الليلة بالذات نعرضنا لأول هجوم عنيف قام به العدو ، قلت لنفسي ونحن نجتاز إلى مراكزنا الأمامية المواجهة للمدينة :

ـ شايف يا نعم أدى البلد اللى ما كنتش تنتظر فيه معارك بعد ..

وانقضى الهجوم بعد ساعة استطعت خلالها وأنا كامن في أحد الخنادق أن أدرك أننا أزاء خصم قوى ..

وأشرق على العالم الفسيح فجر جديد ، وبدت في الأفق الشرقي خيوط وردية ، وشعرت في قرارة نفسي بحسد لأولئك السعداء الذين يغادرون الآن فراشهم الدافىء باسمين بعد أن قضوا ليلتهم في هدوء ، وتساءلت كم يا ترى من هؤلاء السعداء يفكرون فينا ... لا شك أنهم كثيرون ، ولا شك أنهم يذكروننا بعطف وفخر ... !

وقال قائدنا مفكراً « علينا أن نقوم بهجوم الليلة » . ووضعت الخطط اللازمة وتحددت ساعة الهجوم وأمضت قواتنا طول النهار تستعد له ... ولما أقبل الليل وأعطيت إشارة الهجوم بدأت مدفعيتنا تزأر وتقذف المدينة بنيرانها الحامية ، ومررت بحمدى وهو واقف بين مدافعه هادئاً يلقى أوامره بصوت حاد ... قال باسماً لما أن اقتربت منه :

ـ إن المرء ليشعر وهو جاثم خلف هذه المدافع بالطمأنينة تشيع في نفسه ، وأنه قوى لا يقهر .. أنظر كيف استحالت المدينة قطعة من اللهب ..

ولم أكد أتجاوزه بقليل حتى تبدد هذا الوهم سريعاً عندما انهالت علينا قذائف العدو من كل صوب ، وكانت القذائف تشق طريقها فوق الرؤوس فتضيء الوجوه الشاحبة المصفرة ... وكان جنودنا يعملون بصبر نادر أعجبت به ، وذكرت أن هؤلاء الجنود لم يذوقوا طعم الراحة منذ أيام وأيام ... ومررت بجرحى يئنون من فرط الألم ، وقتلى دفنوا وجوههم في التراب .. كان أحدهم قد سقط على ظهره تحت العلم شاخصاً ببصره يحملق في القمر إلا أنه لم يترك بندقيته قط .. كان ممسكا بها بكلتا يديه .. لقد أدى واجبه ، ولم يلق سلاحه حياً أو ميتاً .. مررت بهؤلاء وهؤلاء ومسدسي بيدى .. إن

هذا المسدس هو الذى سيقودنى إلى طريق المجد الذى حدثتنى عنه أمى مراراً .. !

وارتفع صوت القائد آمراً بالهجوم . . فاندفعنا كالسيل الجارف ، وتوالت القذائف ثائرة مهتاجة لا تبقى ولا تذر كأنما تفتحت أبواب الجحيم .. وظللنا على تلك الحالة حوالى ست ساعات كانت أرواحنا خلالها معلقة بين الأرض والسماء . . كنا فى جحيم لم نره من قبل ، وكان كل منا يفكر فى نفسه . . . وفقدنا من جنودنا الشجعان كثيرون ، وكبدنا العدو خسائر جسيمة ، ولما تشتت وارتد هارباً اقتحمنا « الفاشر » حين كان الفجر يؤذن !

ورحنا نحصى عدد القتلى والجرحى . وجعلت أنادى صديق حمدى ولكنه لم يجب وأخذت أبحث عنه كالمجنون وأعدو هنا وهناك . . وأخيراً عثرت به . . وجدته طريحاً على الرمال بين مدافعه ووجهه الجميل غريقاً فى بحر من الدماء ، ولما أسندته بيدى وتحسست وجهه برفق تأوهت مرتاعاً . . .

كان صديق قد فقد عينيه إثر إصابته بمقذوف . . وركعت بجواره ، وأمسكت بأنامله بين يدى ، كانت به بقية من أنفاس تتردد فى خفوت ، وكان واضحاً أن الموت يجذبه إليه سريعاً . قلت له ودموعى تهطل على يديه فتغمرهما :

ـ حمدى . أنا حسنى ياحمدى . كلمنى ياخويا ...

وأجاب بعد حين بصوت خفيض :

ـ حسنى .. حمد الله على سلامتك... خد الساعة دى وصلها لماما ...أنا بموت..

ومد لى يده بالساعة ، وتململ فى رقدته متألماً ، وبكى فى هدوء ..بكى دماً لا دموعاً ، وراح ينادى أمه فى صوت هامس حتى أسلم الروح . . .

وورى الثرى مع غيره من القتلى ، ورقد فى ظل شجرة صندل وارفة . . .

ولما زرت قبره بعد أيام كدت أنكره إذ كان المطر الغزير الذى لم يكف

عن المطول قد أحاله مع غيره من القبور الى كتل من الطين ما لبثت أن تساوت بالأرض . . .

وعدت أخيراً إلى مصر ، أحمل إلى أم صديقي حمدي كل ما تبقى منه . . . ساعة من الفضة ذات سلسلة من البلاتين . أما هو فقد ولج باب المجد . . . المجد الذي نبحث عنه . . . ! !

غرب الحب

« هذه قصة للكاتب العظيم (إميل زولا) لم يسبق نقلها الى اللغة العربية ، قد نقلتها عن الفرنسية بتصرف ؛ وزولا غنى عن التعريف ، فهو كاتب من أشهر كتاب فرنسا ، نزع فى كتاباته نحو المذهب الواقعى ، وتصوير الحياة الحقيقية للبشر ، وهو علم من أعلام المدرسة الطبيعية لفن القصة (l'école naturaliste) ومن آياته الأدبية المشهورة قصته الخالدة (نانا) وكتابه الرائع (أقاصيص الى نيتون) الذى كتبه وهو فى الرابعة والعشرين من عمره ! »

فى يوم من أيام الربيع المشرقة ، كانت فتاة جميلة ، خمرية البشرة ، سوداء الشعر تجلس فى ردهة فسيحة فى بيت مسيو روستند المحامى ؛ وبعض أفراد الأسرة يحيطون بها . . قال لها المحامى وهو يتقدم منها باسماً :

ـــ أهذه أنت يانايس . . جئت الينا بما قطفت من الثمر ، أنت فتاة ذكية ، والأب ميكولين كيف حاله ؟ ـــ قالت الفتاة وقد افتر ثغرها عن أسنانها الناصعة : هو بخير ياسيدى . . حينئذ دعتها مدام روستند إلى المطبخ ، ثم سألتها عن أشجار الزيتون وأشجار اللوز والكروم . . كان يهمها كثيراً أن تعلم حال انهمار الأمطار فى بلدة (استاك) على الشاطىء حيث توجد هناك ضيعة المحامى فإن سماء هذه البلدة كانت تضن دائماً بمائها حتى ليكاد الزرع أحياناً أن يموت من فرط الظمأ . .

أجابت نايس ... تساقطت الأمطار قليلا ، والكروم فى حاجة إلى الرى . . وقدمت لها السيدة قطعة من الخبز وشريحة من اللحم أكلتها بشهية حتى إذا فرغت من طعامها قضت مع

الأسرة بعض الوقت في مصر ، وبالأمان وبعد عودتها استقلت السفينة قاصدة إلى بلدة استاك ...
وحينما كانت نابليون تأتي في أيام العطلات ، كان فردريك ابن الخامسة يذهب اليها في المطبخ : فيقول لها أن الأسرة ستزور الضيعة عن قريب . فيجب عليها أن تعد شباك الصيد . . كان يتحدث اليها في رقة ومودة ، فقد نشأا معاً ولعبا معاً وهما طفلان صغيران ، حتى إذا بلغ الثانية عشرة من عمره كانت تدعوه (ياسيد فردريك) احتراماً له . وإذا مانسيت يوماً ومخاطبته باسمه مجرداً عنها أبوها وربما صفعها أحياناً . ولكن رغم هذا فقد كانا صديقين . . كان مسيو روستند غنياً ذا ثروة ، وكان يحب عمله كثيراً ، وبحثه عن المال يشغل كل وقته ، وكانت قرينته إمرأة رقيقة ممتازة بين لداتها ، ولدت في (فيلبون) وهو يحيطها بهالة من التقدير والاجلال زغم أنها ليست من طبقته . . .

وهكذا كان فردريك ينمو بين هذا الأب المشغول ، وهذه الأم الجامدة ، وحين كان يخلو إلى نفسه ليستذكر دروسه ، كان يجلس شارداً لايعي شيئاً مما يقرأ ، وكان يضطرب حين تلج أمه الغرفة ، وقد غضب أبواه كثيراً عندما أدركا أنه كان ينفق وقته في اللهو والمجون . فآثرا أن ينضم إلى القسم الداخلي بالمدرسة . فيجد هناك من يرعاه ويشرف على عمله ، ولكن الرقابة التي كانت تحوطه في البيت قد تلاشت في القسم الداخلي ، فمضى الفتى في لهوه وغيه حتى بلغ والديه أمره فجزعا من سيرته ، فرداه إلى البيت ثانية حتى يظل تحت رقابتهما . . وبقاؤه في الدار تحت الرقابة الشديدة جعله يضطر إلى الدرس ، فقد كانت أمه تشرف دائماً على كراسانه وترغمه على تكرار دروسه المرة بعد الأخرى . . كانت تقضي الساعات في مراقبته ، كأنها جندي كلف بحراسته ، وقد أثمرت هذه الرقابة ثمرتها ففاز فردريك بشهادة البكالوريا . .

والتحق فردريك بمدرسة الحقوق في مدينة اكس . . كان يعمل جاهداً ، وقد تركت له أمه بعض الحرية عندما رأت نشاطه واجتهاده . فأصبح يخرج من البيت حين يريد ، ولم يكن يقيد إلا بأوقات وجبات الطعام أو بموعد عودته في الليل ، فقد كان

يعود كل ليلة فى الساعة التاسعة مساء عدا الليالى التى يسمح له فيها بالذهاب الى المسرح..

كانت مدينة اكس تبدو دائما خاملة ساكنة . وأولئك الطلبة الذين يقضون وقتهم فى الاستذكار والتحصيل . لديهم كتبهم تشغل وقتهم ، وبين صفحاتها يدفنون نفوسهم القلقة ، أما أولئك الذين يضيقون بالكتب ذرعاً ، ويثقلونها وراءهم ، ففى المقاهى يبعثرون ساعاتهم بين اللهو والعبث ، حتى إذا ضاقوا بالمقاهى ذرعاً ، فهنالك بيوت للفساد تنحدر كثيراً عن مرتبة المقاهى فى الانحطاط . . ؟

وكان فردريك أحد أولئك الفتيان الذين باعوا شبابهم للشيطان . . كان يقضى أيامه فى اللهو والمجون وفى الاستسلام لرغباته واهوائه ، وكان طيش هذا الفتى واستهتاره سبباً فى هبوطه درجات نحو الحضيض ، وكان ينقص هذه المدينة فتيات طليقات شاردات يبعن الهناء واللذة مثل فتيات الحى اللاتينى فى باريس . .

هكذا كان الفتى ينفق أيامه ولياليه . . لم ترتو نفسه من هذا المجون ، فجعل يختلس مفتاح الدار ، حتى يستطيع أن ينعم بأوقات طويلة من المرح والنشوة ، وظل على هذه السيرة العابثة حتى فرغ من دراسة القانون . .

وقد فطن فردريك فى خبث شاب معوج السلوك إلى أنه يجب أن يبدو فى مظهر الشاب المؤدب المهذب ، أما أمه فقد أعلنت أنها قد رضيت عن سلوكه واطمأنت وارتاح ضميرها ، فقد كان يرافقها إلى الكنيسة أيام الآحاد فيسير معها متزن الخطى وقوراً وهو يقص عليها فى هدوء ودعة أكاذيب ضخمة تتقبلها دائما بقلب طيب وفى مهارة نادرة استطاع أن يختلق الأعذار ويلفق الأكاذيب حين تفاجئه مفاجأة . . وكان يقترض نقودا من أبناء عمه عند ما يخونه الحظ فيخسر فى مقامرته ، وذات مرة بعد ربح غير منتظر عزم أن يرحل إلى باريس . . . إلى مدينة النور والحب والحرية فيقضى هناك أسبوعا ينعم فيه بالحياة الطليقة ، ويروى شبابه الظامىء للمسرات ويوهم أهله أن صديقا له قد دعاه إل زيارته فى بلدة دورانس . . .

كان فردريك شابا جميلا فارع القوام وجهه المجون وأحاديث مغامراته كانت تحبب فيه النساء، أما أولئك الأشخاص الذين كانوا يدركون خفة روحه وسحر حديثه، فقد كانت تفتر ثغورهم عن البسمات حين تقع انظارهم عليه، وكان هو يلقاهم مضاحكا مرحا يطوى خلف بسماته ومرحه تلك الخطايا التى عاشها يوما ما ..

كان فردريك حينئذ قد أوشك أن يبلغ الحادية والعشرين من عمره، وكان وقت امتحانه الأخير قد حان، ولما كان أبوه ما زال يتمتع بصحة جيدة وشباب لم يول بعد، فقد آثر أن يدع فردريك يمضى فى دراسته، فيرسله إلى بعض صحابه فى باريس يشرفون عليه حتى يفوز (بالماجستير) ... ولم يستطع فردريك أن يرفض، لم يقو أن يصارح أبويه بالحقيقة لكنه كان يبدو باسماً، بسمة رقيقة ناعمة، إذا أمعن المرء فيها النظر أدرك إدراكا لا يخالطه الشك فى أنه يريد البقاء، ليقضى حياته حراً طليقاً بعيداً عن متاعب العلم والتحصيل والاختلاف إلى الجامعة صباح مساء ... كان يعلم أن ثروة أبيه تتضاعف ... فلماذا يضنى هو نفسه ويرهق أعصابه ؟ وفى انتظار القرار الأخير كان يقضى أيامه فى تدخين اللفائف خلسة، وفى الذهاب، فى الخفاء، كل يوم، إلى البيوت الغامضة التى تبيع الهناء، وهذا لم يمنع من أن يبدو دائماً مطيعاً لرغبات أمه !!

وكانت نايس تجىء بين حين وحين، وكل عام ينصرم يزيدها جمالا وفتنة ... كان لها مثل عمر فردريك أو إنها تكبره بثلاثة أشهر تقريباً، وكانت مدام روستند تقول لها فى كل مرة : سرعان ما أصبحت فتاة ناضجة يا نايس ...

فتبتسم نايس بسمة مشرقة تبدو خلالها أسنانها البيضاء الناصعة ...

وذات يوم كان فردريك فى طريقه إلى خارج البيت، فرأى نايس واقفة فى الردهة ... لقد تغيرت عن آخر مرة رآها فيها، فى مدى عام كبرت ونضجت وترعرعت، كما تنمو الشجرة الصغيرة وتترعرع فتصبح وارفة الظلال متهدلة الثمر ...

اقترب منها وقال لها فى صوت مضطرب يرتعش : أهذه أنت يا نايس .. ؟

أجابت الفتاة ، وهى تتطلع اليه ، بعينيها الواسعتين فى نظرات تومض وتتوهج كاللهب . . — لقد جئت أحمل الفاكهة . . ترى متى ستحضر . . هل أعد لك الشباك . . ؟

كان يتطلع اليها ، يحدق فيها مبهوتاً . . قال لها دون أن يعي ما يقول :

— لقد أصبحت جميلة جداً ياناييس . . سرعان ما نضجت وأصبحت فاتنة أخاذة الحسن . . هذا الثناء أضحكها . . وعندما أمسك بيديها بين يديه كما كان يفعل صغيراً ، ودنا منها . . تلاشت بسمتها وقالت له فى صوت خافت : كلا . . . ليس هنا . . حذار إن أمك قادمة . . !

. . .

(٣)

بعد خمسة عشرة يوماً من حدوث هذا رحلت أسرة روستند إلى الضيعة فى قرية بلانكارد ، ولم يرافقها رب الأسرة فقد كان ينتظر عطلة المحاكم . . كان شهر سبتمبر معتدل الجو فقد تلاشت النسائم الحارة ، وكان النسيم الندى الرطب يمسح الوجوه فى حنان . .

لم تكن بلا نكارد فى بلدة استاك تقريباً ، إنما كانت على ضواحى مرسيليا فى نهاية سلسلة صخور متقاربة تكون خليجاً ، وهى قرية على مجمع صخور تحيط بها من كل ناحية ، وكان القادم من بعيد يرى مبانيها الصفراء اللون تحيط بها باقة من شجر الصنوبر ، والخطر الذى كان يداهم هذه القرية أحياناً ، أن البحر عندما يثور كان يزعزع الصخور المشيدة عليها ، وكثيراً ما تسقط صخرة ضخمة فى البحر فتحدث جلبة شديدة مفزعة . .

منذ أربعين عاماً يقيم آل ميكولين فى بلانكارد وهم قوم يمتازون بالشراسة والعنف وكانوا يحترفون زراعة الأرض . . كانت الأسرة تتكون من الأب ميكولين وهو رجل قوى متغضن الوجه قد تخطى أعوام الشباب منذ بعيد وشرع يدلف حثيثاً إلى مغرب الحياة . . أما الأم فهى امرأة مشوهة المحيا من فرط العمل فى زراعة الأرض

تحت حرارة الشمس ، والابن الذى كان يعمل سالياً فى بلدة (آروجنت) . ثم نايبس التى أرسلها أبوها أخيراً لتعمل فى مصنع للطوب الأحمر رغم الأعمال الكثيرة التى تقوم بها فى البيت ، وكانت الأسرة دائماً حزينة مكتئبة ، لاتعرف السعادة إلا فى ضحكات قليلة وأغان بسيطة فى الحين بعد الحين ، وكان البيت يبدو دائماً ساكناً هادئاً..

ولم تكن نايبس الجميلة سعيدة .. كانت مخلوقة بائسة تعسة ، وهبتها الطبيعة الجمال والفتنة ثم سلبتها الهناء والسعادة .. لما كانت فى السادسة عشرة من عمرها كان أبوها يصفعها حتى تسيل قطرات الدم من أنفها إذا لم تجب سراعاً أى طلب من طلباته التافهة ورغم أنها قد تخطت العشرين من عمرها فإن آثار الضرب والعنف ترى بوضوح أحياناً على كتفيها الجميلين ، ولم يكن هذا الرجل رديئاً بطبعه فإن سلطة المالك كانت تملأ نفسه ، كان يحب السيطرة على أسرته ، ويحب أن يكون مطاعاً مرهوب الجانب . .

وذات صباح فكر الأب ميكولين أن يرسل فتاته لتعمل فى مصنع للطوب الأحمر فيضم راتبها إلى دخل الأسرة ، واستقر رأيه على ذلك فبعث بها ... وهكذا استطاعت نايبس أن تتحرر أخيراً من تلك القيود والأصفاد التى كبلها بها أبوها .. كان العمل شاقاً عسيراً ولكنها كانت به فرحة سعيدة . . كانت تمضى كل صباح فتستقل القارب إلى الضفة الأخرى حيث يوجد مقر العمل ، فتظل هناك طيلة نهارها ثم تقفل عائدة مع غروب الشمس . . وقد ارتاحت لهذا العمل واعتادته ، ولم تعد تشعر بأن أباها يلاحقها دائماً . . كانت تمرح وتضحك ، فى حرية مع الشبان ، وقد أضفى عليها هذا العمل الشاق جمالا إلى جمالها ، فالشمس الحارة المتوهجة أكسبت بشرتها لوناً ذهبياً خلاباً ، وكانت تبدو على عنقها البض ظلال باهتة من وهج الشمس أما شعرها الأسود فكان يتهدل فى خصلات حين يداعبه النسيم وهى تخطر فى مشيتها . . كانت الفتاة تبدو دائماً مرحه سعيدة ، تغرق فى الضحك إغراقاً ، وظن أبوها أن ضحكها هذا ومرحها غير طبيعى ، وان هنالك سراً تطويه بين حنايا صدرها ، وقرر أن يقتل أى رجل يحوم حولها أو ينشىء معها صلة حب . . وكان لنايبس معجبون كثيرون ، ولكنها لم تكن

لتشجيع منهم احداً ، كانت تسخر من كل شاب يحدثها عن اعجابه بها وحبه لها ، وقد اصطفت لنفسها من بينهم صاحباً ، وكان رفيقها الوحيد هذا رجلا أحدب ، ضئيلا قصير القامة ، يعمل معها فى مصنع الطوب ، كان يدعى « توان » ، وقد وجده بنيت اللقطاء فى مدينة اكس ثم ارسله إلى بلدة استاك فعاش فيها . . كانت نايبس تجد فى صاحبها هذا مخلوقاً طيباً متسامحاً ، عندما تستشعر الضيق تصب عليه غضبها وثورتها . . تقسو عليه دون ماذنب جناه ، فيحتمل ثورتها فى هدوء ورضى . . وكان « توان » أضحوكة البلدة ومبعث سخرية سكانها ، فقد كانت هيئته تثير الضحك ، أما الأب ميكولين فكان يعطف عليه ويؤثره وكان يقول (أنا سمحت للأحدب فى مرافقة ابنتى . .)

فى هذا العام أقبلت أسرة روستند إلى الضيعة ، وطلبت مدام روستند الى الأب ميكولين أن تقوم نايبس بخدمتها ، لأن إحدى خادماتها قعيدة المرض ، وكانت نايبس قد فرغت من عملها فى مصنع الطوب الذى كان قد أغلق أبوابه ، ولم يستطع ميكولين إلا أن يجيب طلبها . .

وقد مضى مسيو روستند إلى باريس ، فإن لديه أعمالا هناك ، وظل فردريك وأمه فى الضيعة . . كان هذا الشاب ينفق وقته فى الألعاب الرياضية تارة ثم يذهب تارة مع الأب ميكولين فيقضى ساعات فى صيد السمك ، ثم يمضى تارة فى نزهات طويلة ، وحين يعود من نزهاته يجلس تحت شجر الصنوبر فى الشرفة هادئاً يفكر ويحلم . . يتطلع الى البحر الازرق الفسيح الغامض الذى يسبب له دائماً قلقاً ووحشة . .

ومضت أيام . . وكان الأب ميكولين يقبل مع شروق الشمس ليدعو فردريك ليمضى معه إلى الصيد ، ولكن الفتى كان يعتذر ، فلم يعد الصيد يغريه . . كان عندما يستيقظ من النوم يمضى الى الشرفة ، فيجلس تحت أشجار الصنوبر الوارفة ، ويسند ظهره إلى الحائط ، وقد أطلق لتفكيره العنان . . وقد دهشت أمه كثيراً عندما لم تعد تراه يتلهف على الصيد كما كان يفعل من قبل ، واصبحت تراه هادئاً خاملا لم يعد يعنيه شىء

ومضى الأسبوع وكان فردريك يقضي وقته جالساً تحت أشجار الصنوبر ، يتنقل بين شعاب الفكر وطرقات الخيال ، حتى إذا طاردته الشمس انتقل من مكانه الى مكان ظليل ، وهكذا كانت ساعاته تنصرم ، يحمل في يده كتاباً لا يقرأ منه حرفاً ، وإذا ماضاق به ذرعاً ألقاه على العشب . . لم يكن ينظر الى البحر ويتأمل أمواجه المتلاطمة ، إنما كان يرسل نظراته نحو البيت ، يرقب الخدم في غدوهم ورواحهم ، حتى إذا عبرت نايبس تطلع اليها ملياً وقد ومضت عيناه بلهيب من الرغبة والحنين ، ولكن نايبس كانت تمضي في طريقها تخطر في رشاقة دون أن تبادله النظر . .

وهكذا كانت الأيام تترادف ، وهذا المشهد يتكرر كل يوم . . بل كل ساعة . . وكان فردريك يعامل نايبس في حضرة أمه في قسوة وعنف ويقول لها (أنت خادمة كسولة غير ماهرة) ولكن الفتاة كانت تقف مطرقة الرأس وهي تشعر بهناء خفي ، فقد كانت تدرك أنه يقول ذلك ليخفي وراءه مشاعره نحوها ، التي كانت تطالعها من نظراته الطويلة . . وذات ليلة التقيا مصادفة في الظلام ، في ناصية الشرفة ، ولم تكن قد غمتهما خلوة من قبل ، ولم يكن أحد من أهل البيت ليستطيع أن يراهما أو يسمع حديثهما . . سألته بصوت خفيض لما رأته أمامها فجأة :

لماذا تنهرني دائماً يافردريك . . إنك انسان رديء . . لم يجب . . بل دنا منها وأمسك بيديها بين يديه ثم ضمها الى صدره وطبع على شفتيها قبلة . . تركته يفعل . . تركته يقبلها وهي هادئة صامتة ثم انفلتت من بين ذراعيه وانطلقت مسرعة ، أما هو فقد جلس على سور الشرفة حتى لاتراه أمه وهو مضطرب منفعل ، وبعد دقائق معدودة كانت نايبس تشرف على اعداد المائدة وهي هادئة فخورة . . وذات مساء التقيا صدفة تحت شجرة زيتون عند مجمع الصخور ، فعادا معاً الى الدار . . وفي احدى الليالي وكان الجو حاراً نبا الفراش بفردريك ، فمضى هذا الى النافذة ، يدخن لفافة ويتأمل الليل الهادىء الساجي ، وكانت الساعة حين ذاك الواحدة بعد منتصف الليل ، وفجأة رأى شبحاً يسعى بطيئاً في ظلام الشرفة الفسيحة . . لم ينتظر وتسلل في هدوء حتى لاتستيقظ أمه ،

ثم مضى الى حيث تجثم شجرة الزيتون فقد قدر أن نايلس ستنتظره هناك . .

قال بصوت خافت مضطرب : أنت هنا . . ؟ قالت هي : أجل . . واقترب منها ، وأحاط خصرها بذراعه ، فاسندت رأسها الى صدره ، وساد بينهما صمت عميق . . كانت شجرة الزيتون العتيقة تظللهما بغصونها الوارفة ، والبحر يترامى أمامهما تبدو صفحته السوداء ساكنة تحت أضواء النجوم المرتعشة . ومن بعيد تبدو مرسيليا من خلف ضباب شفيف ، ويلوح ضوء الفنار الجاثم بين الأمواج ، رائعاً أخاذاً . . لم يتحدثا عن غرامهما الوليد ، فقد كانا يعيشان في الماضي ، يذكران أيام كانا طفلين سعيدين ضاحكين لا يعرفان من الحياة إلا وجهها الضاحك المشرق . . إنهما يظنان أن حبهما هذا طبيعي لامثار فيه للريب . . ألم ينشأا معاً منذ الصغر ، ولم يعودا يذكران إلا أن كلا منهما محتاج إلى الآخر أشد الحاجة . .

ولما مضى الليل ، وأقبل الفجر يمزق أستار الظلام افترقا وعاد كلا منهما من الطريق الذي أقبل منه . .

. . .

(٣)

ماأروعها من أيام صافية مشرقة ، لقد انقشعت الغيوم وبدت السماء صافية زرقاء الأديم كأنها مغطاة بحرير براق . . الشمس تشرق كل صباح من خلال بلور وردي ثم تغرب في تراب من الذهب . . ! والمدينة الفخمة الجميلة تجثم هادئة وعلى ضفتي الخليج تمتد قطع من الصخور ، وهناك عند نهاية الجبال ترقد مرسيليا على تلال منخفضة ، وعندما تكون السماء صافية يستطيع الواقف على شاطىء استاك أن يرى سواري المراكب الصغيرة في الميناء البعيد ، يلوح من خلفها طريق من الأشجار ، وتبدو كنيسة بيضاء في أحضان الأفق . .

وعندما تغرب الشمس ، يبدو البحر بامواجه الفاتنة كأنه شبح أسود يرقد بين صفين من الصخور البيضاء وثم الصنوبر بلونه الأخضر القاتم والأرض الحمراء كل هذا يكون لوحة رائعة خلابة . . وهكذا تبدو المدينة بين اختلاف النهار والليل . .

فى هذه المدينة نما الحب وترعرع بين فردريك وناييس ، وكان لهذه المشاهد الطبيعية الخلابة سحر غامض أضفى على مشاعرهما حرارة واشتعالا . . كانا يلتقيان فى الظلام ، تحت شجرة الزيتون المعهودة عند مجمع الصخور ، وكان اللقاء بدء حياة جديدة ، متعة لذيذة من الهناء ونسيم الليل الرطب الممطر يخفف من حمى هذا الهوى الجامح الذى أفعم نفسيهما ، والبحر الفسيح الرائع يرقد عند أقدامهما ينبعث منه صوت تلاطم الأمواج فى خفوت وهمس . . كانا يجدان فى العناق تنفيساً عن هذا الاضطراب الذى يراودهما ، وهما يرسلان الطرف إلى الضفة الأخرى حيث يلوح من بعيد شاطىء مرسيليا ، يبدو من خلال الظلام تبرق أمواجه على وميض أضواء الميناء . . وكانت هذه الانوار ، الأنوار الشاحبة التى تضفى على الخليج وأمواجه سحراً رائعاً خلاباً ، تجعلهما يعيشان فى مدينة من صنع الاحلام ، يسمو فيها الحب ويرتقى بعيداً عن حضيض البشرية . .

وفى ليلة من ليالى اللقاء أطل عليهما من الأفق بدر مكتمل ، يخطو وئيداً فى رحاب السماء ، وخيل اليهما أنه يرقبهما ويتطلع اليهما ، وشعت أضواءه الفاتنة فاضاءت الأرجاء وانعكس نوره الزاهى على أمواج البحر فبدت كأنها سبائك من الفضة . . وبدت المدينة كلها . . الدور والأشجار والطرقات والبرارى للفسيحة كأنها فى وضح النهار ، وراودهما القلق وضاقا ذرعاً بهذا الزائر الدخيل ، هذا الضوء الذى جعلهما هدفاً لعيون الرقباء وهما بجلسان غير بعيد من بلانكارد ، وخشيا أن يراهما أحد من سكان القرية يكون قد نابه الفراش وأسلمه الى السهد خلف الدار وراءه ومضى فى الليل الساكن يسعى بين الربوع ؛ وهكذا قررا أن يمضيا الى مكان آخر يشعران فيه بالامن والطمأنينة . . . . وحين التقيا فى المرة التالية ، مضيا يتنقلان من مكان الى مكان ، وظلا هكذا خمسة

عشرة يوماً يتنقلان من بقعة الى أخرى ، حتى اختفى القمر وعاد الظلام يرعى السكون من جديد . . ولما عادا الى اللقاء فى مكانهما المعهود خيل اليهما أن بلانكارد قد اصبحت ضيقة لاتسعهما وانهما يودان لو كانت هذه الأرض الفسيحة ملكا مباحاً لهما . . ذات ليلة بينما كانا يمضيان معاً ، فى طريق تحف به أشجار الصنوبر ، سمعا وقع خطوات خافتة تلاحقهما ، فاضطربا . . قال فردريك :

— أتسمعين صوت هذه الأقدام التى تلاحقنا . .

قالت نايس : أجل ، لعلها صوت أقدام كلب ضال . .

ولما وصلا آخر الطريق ، وانتهت أشجار الصنوبر ، رأيا شبحاً أسود يتوارى خلف الصخر ، آدمياً يبدو كأنه محدودب القوام ، فاضطربت نايس وقالت : انتظرنى لحظة . . ثم مضت تعدو صوب الشبح ، وغابت لحظات عادت بعدها هادئة وقد زال عنها اضطرابها . . سألها فردريك . من هذا ؟ قالت هى : لا شىء . . . !

وصمتت لحظة ثم أردفت : إذا ماسمعت صوت أقدام تلاحقنا فلا تخش شيئاً ، إنه « توان » الأحدب ، ألا تعرفه . . إنه يبغى حراستنا . .

لقد كان فردريك يشعر دائماً أن هنالك من يرقبهما فى الظلام . . كان هناك من يحيطهما بحمايته ورعايته . . إنه « توان » المسكين ، ولطالما كانت نايس تزجره وتمنعه عن متابعتهما ولكن هذا الآدمى البائس لم يكن يطلب منها إلا أن تدعه يكون كلبهما الأمين . . . لماذا لاتدعه يرعاها من بعيد مادام لا يختلس شيئاً من سعادتها . . . لماذا لا تسمح له أن يحيطها بعطفه وحمايته مادام لا يطلب منها شيئاً ولا يتقاضاها شيئاً . . ومنذ ذلك الحين كان العاشقان يسمعان — إذا ماتبادلا القبلات خلف مصنع الطوب أو على رمال الصحراء أو عند مجمع الصخور — صوت نحيب خافت يوقظهما لحظة من غفوتهما الذاهلة . . إنه توان ، كلبهما الحارس هو الذى كان ينتحب وقد دفن رأسه بين يديه . . ؟!

كانا يلتقيان فى الليل ، ثم أصبحا أكثر جرأة ، فكانا يلتقيان فى أية فرصة . . . فى بعض الأحيان يلتقيان فى إحدى حجرات الضيعة فيتبادلان القبلات ، وتارة على المائدة إبان تناول الطعام حين يطلب فردريك صحفة أو قطعة من الخبز ، فتسرع نايبس لتناوله إياها ، فيجد الفرصة التى تمكنه من الضغط على يدها أو لمس ذراعها . . وكانت مدام روستند ، الجامدة الصلبة ، لاترى شيئاً ولكنها أوشكت يوماً أن تفاجئهما معاً ولكن الفتاة انتبهت لخفيف ثوبها ، فجلست مسرعة وتصنعت أنها تنظف بمنديلها حذاء سيدها الصغير . . . أما الأب ميكولين فكان يبدو صامتاً كأنه حيوان عنيد ، كان يذهب الى البحر كل يوم ثم يعود وكانت تشع من عينيه نظرات من الحيرة والقلق . . كان يتطلع دائماً الى نايبس بطرف خفى ولكنه لايتحدث اليها إلا لماماً ، وكانت هى تدرك أنه قد تغير كثيراً عن قبل ، وأنه يطوى فى نفسه أفكاراً وشكوكاً لايبوح بها ، وذات يوم ثار عليها دون ماسبب ولكمها لكمة أدمت شفتيها . .

وحين أقبل الليل ، ومضت تلقى فردريك ، سألها هذا فى اهتمام حين هم بتقبيلها فألفى شفتيها متورمتين . . قالت هى فى استحياء : لاشىء . . . إنه أثر من آثار قسوة أبى . . .

كان صوتها حزيناً ، متهدجاً ، بعث الألم فى نفس فردريك الذى قال لها أنه سوف يضع حداً لهذه المعاملة القاسية قالت هى :

ـ كلا . . دع لى هذا . . سوف أضع بنفسى حداً لذلك . .

ومن يومها لم تعد تحدثه عما يصيبها من عنف أبيها ، ولكنها كانت فى اليوم الذى يقسو عليها أبوها ، تعانق حبيبها فى شهوة وعنف ، كأنما هى تريد أن تنال من حبه عوضاً عما تلاقيه . .

كانت نايبس تلقى فردريك كل يوم تقريباً ، وكانت تفعل ذلك بجسارة وجرأة مع حيطة وحذر ، ولكنها عندما أدركت أن أباها يطيل إليها التحديق الخفى وتلوح من عينيه نظرات من الشك والريبة عادت إلى نفسها تهدهدها ، جاهدة فى تهدئة حدة هذه

العاطفة الجارفة الملحة . . وذات يوم قالت لها أمها فى سياق الحديث :

ـــ ألا تعلمين أن أباك ينفق بعض لياليه ساهراً وهو يتنقل من مكان إلى آخر . .

وهكذا استطاعت نايس أن تدرك ما يراود أباها من أفكار ، فعزمت أن تبعد مواعيد اللقاء ، وانقطعت عن لقاء فردريك وأخلفت موعدين . .

ولكن رجاء فردريك ونظراته المتوسلة جعلتها تنسى سراعا ما عقدت عليه العزم فى أن تسلك فى حبها طريق الروية والتعقل . . وفى فورة الحب الطاغى مضت لتلقى فتاها من جديد ، وكانت الساعة الحادية عشر ليلا ، وقد عزمت ألا تظل معه سوى ساعة تعود بعدها إلى الدار ، ولعل أباها مازال فى أول نومه مستغرقاً ولن يشعر بها . .

وكان فردريك ينتظرها عند شجرة الزيتون المعهودة . . لم تحدثه بمخاوفها وشكوكها ، ولكن حين طلب إليها أن يمضيا بعيداً رفضت قائلة أنها تشعر بتعب وتفضل كثيراً أن تبقى . . وجلسا فى مكانهما المعهود ، والبحر عند أقدامهما ، ومن بعيد تلوح سرسيليا المضيئة كأنها حلم من أحلام اليقظة ؛ والقمر يشع نوره اللامع على الأمواج .

وتطلعت نايس إلى فتاها ، تروى نفسها المشوقة الظامئة من جمال محياه ، ثم أسندت رأسها إلى كتفه وران عليهما صمت عميق . . وهدأت أنفاسها وراودها النعاس ثم لم تلبث أن غفت وامتدت يد السكرى فمسحت على عيون رفيقها فمضى هو الآخر فى غفوة طويلة . . ! يا لله . . ما أروع هذه اللوحة الحية . . وجهان متلاصقان وجسدان متدانيان وأنفاس ممتزجة . . شابان فى ربيع الحياة ضمهما ملاك النوم بين ذراعيه السحريتين ثم حملهما إلى جنة من الأحلام والمنى . .

كل شىء هادىء ساكن . . لاحس ولا حركة . . الأشجار ساكنة أغصانها والبحر ساج قد غفت أمواجه وتدانت وتعانقت ثم راحت فى سبات عميق . . ولا يبدد هذا السكون المخيم سوى صوت غناء الجراد الأخضر يأتى من بعيد ، من بعيد جداً ، خافتا متقطعا . . ويبدد هذا السكون فجأة بروز شبح أسود من خلال الظلام ، يمضى وئيداً

يسترق الخطى ، واقترب . . كان هذا هو الأب ميكولين الذى استيقظ من نومه على صوت نافذة تفتح ، فمضى يتفقد نايبس فى غرفتها ، فلم يجدها خلف الدار وراءه ومضى يسعى وقد حمل فى يده بلطة قد يحتاج إليها . . ! !

ورأى من بعيد بقعة سوداء فى ظل شجرة الزيتون ، فقبض بيده على البلطة وتقدم ولكن النائمين لم يتحركا . . واقترب وظل يتقدم حتى أصبح على بعد خطوتين وأطل على وجهيهما . . وأصابته دهشة ، وعجب عندما أدرك أن هذا الفتى هو السيد الصغير . قال لنفسه :

ـ أجل . . إنه فردريك . . إنه السيد الصغير . إننى لا أستطيع قتله وهو فى هذا الوضع . . إن هذه الدماء سوف تروى الأرض التى عشت عليها وزرعتها وطعمت من ثمرها . . ثم هز رأسه واستأنف يقول لنفسه : أجل ، إن الفلاح الضعيف المسكين لا يقوى على قتل سيده علنا ، ولكن ما زال فى العمر بقية . .

وخلف العاشقين فى غفوتهما ثم قفل راجعاً يسترق الخطى . .

ولما عادت نايبس قبل شروق الفجر بفترة قصيرة ، كانت صريعة القلق والحيرة من فرط ما تغيبت ولكنها وجدت نافذة غرفتها كما تركتها . .

ولما أقبل وقت الغداء كان الأب ميكولين يبدو هادئا وهو يتناول طعامه ، فتأكدت نايبس أن أباها لم يعلم شيئاً . .

. . .

(٤)

هبط الرجلان الدرج ثم اتخذا طريقهما إلى البحر ، وظلت نايبس واقفة فى الشرفة ترقبهما وتلاحقهما بنظراتها ، ولما التفت أبوها خلفه ورآها واقفة ترقبهما قطب جبينه . .

منذ خمسة أيام والعواصف تهب ، حتى الأمس كانت العواصف ثائرة ، ولكنها في الصباح هدأت قليلاً ، وكان البحر في هذه الساعة من الصباح ثائراً صاخب الأمواج ، وما عتمت السماء أن انقشعت عن غيومها وأصبحت كالبلور ، ومن بعيد بدت مرسيليا واضحة جداً حتى ليستطيع المرء أن يحصى عدد نوافذ الدور المطلة على البحر . .

ومضى ميكولين يقذف في سكون دون أن يلتفت إلى فردريك الذي كان يتطلع إليه وهو يفكر في نايس ، ثم مضى يتأمل البحر حيث يشق القارب الماء وينحدر عليه . . كان الماء يضطرب والعشب يتماوج كأنه شعر الغريق ، ولقد أعجبه هـــذا المشهد ثم عاد فتشاءم منه . .

قال فردريك بعد صمت طويل : لقد بدأت الرياح تواجهنا أيها الأب ميكولين ، فخذ الحذر ، أنت تعرف أني أجيد السباحة . .

قال الرجل في صوت هادىء : أجل . . أجل .

كان يقذف في بركة رتيبة ، وكان القارب يضطرب على الأمواج كأنه يرقص والرذاذ يتطاير من الموج مع هبوب الرياح . . ورفع ميكولين المجدافين ووضعهما داخل القارب ، وأرسل طرفه جهة العلامتين اللتين تدلان على مكان وجود السمك ثم أدرك أن لا بد له أن يجدف خمسة دقائق على الأقل . . وفي اللحظة التي هم فيها أن يرسل شباكه ، أرسل نظره بعيداً حيث تجثم (بلانكارد) وهكذا فعل فردريك ، رأيا بوضوح بقعة بيضاء تحت شجر الصنوبر ، تلك كيانت نايس واقفة في الشرفة ، بثوبها الأبيض . .

وأصابا في صيدهما حظاً حسناً . . حتى قال ميكولين : لقد انتهينا . . الآن نستطيع العودة . . ثم مضى يرتب الشباك في قاع القارب ، ولما رآه فردريك وهو يطلق الشراع قال له قلقاً :

ــ يجب أن نعود بالتجديف ، فان الرياح عاصفة قوية ومن الخطورة أن نستخدم الشراع . . قهز ميكولين كتفيه وقال : أنا أفهم ما أفعل . .

وقبل أن يطلق الشراع ، أرسل نظراته مرة أخرى صوب بلانكارد . . . كانت نايبس هناك ، تبدو من بعيد بثوبها الأبيض ترقب البحر . .

وفى لحظة خاطفة وقعت الحادثة مثل الصاعقة . . لما أراد ميكولين أن ينشر الشراع هبت ريح شديدة عبثت بالشراع ، فاضطرب القالب ثم انقلب بمن فيه فى مثل لمحة البصر . . ونجا فردريك من الموت غرقاً بمعجزة . . كان قد سقط فوق الشراع الذى حمله لحظات حتى أقبل بعض الصيادين الذين شاهدوا الحادث فخفوا لنجدته ، أما الأب ميكولين فقد مضى يسبح حتى وصل تقريباً إلى الشاطىء . .

وكانت مدام روستند ما تزال نائمة ، فأخفوا عن الحادث . . ووقفا فى الشرفة يجففان ثيابهما ، وكانت نايبس قد شاهدت ما حدث . . قال ميكولين :

— لقد جمعنا الشباك وكنا على أهبة العودة ولكن . . وأسفاه . . . ليس لنا نصيب من الحظ . . كانت نايبس منقبضة الوجه . . قالت وهى تحدق فى أبيها :

— أجل . . لا يوجد حظ مطلقا . . ولكن العودة بالشراع ضد الريح معناها أن المرء يكون عالماً بما سيحدث . .

قال ميكولين فى انفعال : ما شأنك أنت ياغبية . . ألا ترين فردريك وهو يرتجف . . ساعديه على الدخول . .

واضطر الفتى أن يقضى يومه فى الفراش ، مدعياً أمام أمه أن صداعاً خفيفاً قد ألم به ، وفى اليوم التالى ألفى نايبس حزينة ، وقد رفضت أن تلقاه . .

وذات ليلة التقى بها فى الشرفة ، فاحتضنته فى لهفة وقبلته فى شوق وعنف . . لم تحدثه عن حزنها وقلقها وخوفها من أن يصيبه أبوها بالأذى . . إنما أخذت منذ ذلك اليوم ترعاه وتحرسه ، وكان الأب ميكولين يمضى إلى عمله ثم يعود كعادته ، وكان يبدو أكثر طيبة وهدوءاً ، حتى أنه لم يكن ليقسو على ابنته إلا لماماً . . ! ؟

كانت أسرة روستند تذهب للنزهة على شاطىء البحر فى جهة (نيبولين) فى تجمع الصخور ، وكان الرجال يصخبون بنادقهم ينشدون الصيد فى التلال . . وفى هذا العام اصطحبت مدام روستند نايبس ولم تنصت إلى معارضة أبيها القاسى . . .

أقلعوا فى ساعة مبكرة . . الصباح يبدو جميلا صافياً كالمرآة تحت أشعة الشمس الذهبية ، والبحر كالوشاح الأزرق . . وفى جزيرة تجثم وسط الصخور ، أرضها مغطاة بالعشب كانوا يقضون يومهم ، وكانت ساعات سعيدة تلك التى كانوا ينفقونها وسط المناظر الطبيعية الخلابة . . وبعد أن فرغوا من غدائهم ، جلسوا يستجمون ، فقد كان وهج الشمس يلفح الوجوه . . وجعلت مدام روستند تشتغل بالإبرة ، ونايبس على مقربة منها تنظر إليها تارة كأنها معجبة بحركات الإبرة وهى تمضى وتجىء ثم ترقب أباها تاره أخرى وهو مضطجع غير بعيد منهما إلى جانبه فردريك مستلق هو الآخر وقبعته فوق وجهه . .

ولما هدأت الشمس وأوشكت الساعة أن تبلغ الرابعة ، استيقظا من غفوتهما . . ها هو ميكولين يؤكد أنه رأى منذ أيام طيوراً للصيد غير بعيد من هذا المكان ، وها هو فردريك يستجيب لرغبته ، فيحمل كل منهما بندقيته وينطلقان . .

ولم يلبثا أن اختفيا وراء الصخور ، فقامت نايبس قائلة (سوف أذهب لرؤيتهما) ومضت تتبعهما من بعيد . . مضت بطيئة الخطى ، ورأت فردريك فى نهاية الطريق ، وكان مصوباً بندقيته مما لا يدع مجالا للشك فى أنه وجد طيراً للصيد ، ولكنها لم تر أباها ، وفجأة رأته وقد اختفى وراء صخرة غير بعيد منها . . كان مصوباً بندقيته صوب فردريك . .

وفى لحظة خاطفة كانت نايبس قد وصلت وراء أبيها ، ومرت دقائق كان فردريك قد اختفى وراء صخرة ثم عاد فظهر ثانية . . وأطلق ميكولين بندقيته ، ولكن

صدمة من نايس التى كانت تتوارى خلفه أطاشت الطلقة فمضت تخترق الفضاء فى صوت يدوى . .

واعتدل الرجل ثائراً ساخطاً عندما رأى نايس أمامه ثم رفع بندقيته وما زال الدخان ينبعث من فوهتها كأنه يريد أن يهوى بها على الفتاة . . ولكن الفتاة ظلت جامدة فى مكانها ساكنة لا تتحرك وقد شحب وجهها شحوباً هائلا وتوهجت عيناها فلم يقو الرجل على أن يهوى على رأسها بندقيته فأعاد ذراعه إلى جانبه وهو يتمتم فى غيظ (اذهبى . . اذهبى عنى . . سوف أقتله . .)

ولما أوشكت الشمس على الغروب وبدا نور الشفق الوردى على حاشية الأفق أقلعت أسرة روستند عائدة إلى بلانكارد والأب ميكولين يبدو هادئاً كأن لم يحدث شىء وهو يعمل مجدافيه فى الأمواج !

. . .

(٥)

مضى شهر سبتمبر عاصف الرياح شديد البرودة وكانت الأيام تتلاحق مسرعة ونايس ترفض فى اصرار أن تلقى فردريك فى الليل . . كانت تختلق الأعذار . . . ولكنها كانت تأتى كل صباح فى الساعة السادسة عندما تكون مدام روستند ما تزال نائمة . . كانت تصعد إليه فى غرفته وتقضى معه وقتاً ينقضى كالحلم وهى ترقب أية حركة تصدر فى البيت من باب الغرفة التى تتركه مواربا . .

فى هذه الساعات القليلة كانت نايس تتفانى فى حبها . . كانت تعانق فردريك وتدنى وجهه من وجهها وتحدق فيه بعطف يغشى عينيها الجميلتين بالدمع . . . كانت تراجع نفسها دائماً بأنها يجب ألا تراه ولكنها لم تكن لتستطيع إلى ذلك سبيلا فتعود

لتضمه الى صدرها من جديد وتمطر وجه الحبيب بقبلاتها ، كأنها تؤكد لنفسها أنها سوف تعمل على انقاذه . . .

يوم يمر . . . ويومان . . . وأيام تترادف ، والفتاة يشحب وجهها : ويذوى جمالها ، وتغور عيناها ، وينطفئ بريق نظراتها الفاتنة ، وتبدو دائماً حزينة ساهمة واجمة . . كانت المسكينة صريعة عـــذاب وألم ، كانت فى ضلال نفسى عميق ؛ فهى تود لو يظل فردريك الى جوارها ، فقد أصبحت لاتقوى على فراقه ولكنها فى الوقت نفسه كانت تريد أن تقول له (اذهب . . اذهب بعيداً) . . كانت تحبه ولكنها تخشى عليه ؛ وقد أدركت أنها فقدته ، ولن تعود أبداً تلك الساعات الهنيئة التى نعما فيها بالحب . .

وذات ليلة سألت نفسها وكانت ثائرة الأعصاب مضطربة (لوكانت تقوى على أن تدع فردريك يذهب ضحية ابيها حتى لايذهب الى نساء غيرها) ولكن هذا الخاطر جعلها تضطرب أشد الاضطراب ، وامتقع وجهها عندما تصورت فتاها الحبيب صريعاً قد رقد جثة هامدة بلا حراك . . يالها من فكرة حمقاء ومن خاطر أثيم . . إنها سوف تعمل على انقاذه بكل ماأوتيت من جهد ومن قوة رغم أنها أدركت أنه لم يعد يتعلق بها كما كان يفعل من قبل ؛ وان شيئاً من الملل والسأم قد طغى على مشاعره نحوها ، لقد كان يسعدها كثيراً أن تعرف أنه حى يتمتع بحياته وشبابه . . .

كانت تبدو مضطربة دائماً ، مترددة الرأى ، وحين ترى فردريك فى الصباح وقد هم بالذهاب الى البحر تقول له : كلا . . لاتذهب . .

وكانت فى مرات أخرى تنصحه بالخروج : يجب أن تمضى . . أنت أصبحت لاتحبنى ، اذهب لكى تقضى أياماً فى المدينة . .

وقد دهش فردريك كثيراً من هذا التغيير الطارىء الذى ألم بها ، وهذا الانحراف فى طباعها وخلقها جعله يتبرم بها وتراءت له أقل جمالا وفتنة منذ أن ذبلت وشحب وجهها ، فبدأ يعاوده قلقه وتبرمه بهذا الحب الجارف العنيف ، وجعل يأسف على مافات من

أيامه حيث كان يعيش طليقاً مرحاً ، وراوده الحنين الى مياه كولونى وفتيات اكس ونساء مرسيليا الفاتنات ، عاوده الحنين الى اولئك النساء الباتنات بعبيرهن الأخاذ وأجسادهن البضة . .

وكانت نايس فى ذلك الحين صريعة القلق ، يدوى فى أذنيها صدى صوت أبيها وهو يهتف (سوف أقتله . . سوف أقتله) . . فى الليل كانت تهب من نومها فجأة إثر حلم رهيب ترى فيه طلقات البنادق تنطلق فى الفضاء ، وإذا غاب عنها فردريك ساعة من نهار أحست قلقاً شديداً لغيابه فقد كان طيف أبيها يلاحقها دائماً من الصباح إلى المساء وهو يهتف (سوف أقتله . . سوف أقتله) .

وكان ميكولين يبدو هادئاً لا يتكلم إلا لماماً ، وكانت نظراته وكل حركة من حركاته تجعله يبدو كأنه يقول (سوف أقتله . . فى أول فرصة تواتينى ولن أبالى أن تطاردنى العدالة ثم هناك نايس تنتظر جزاءها) . .

أمطرت السماء وظلت الامطار تنهمر يومين ، وكان فردريك سيغادر الضيعة فى الأسبوع التالى إلى مدينة إكس ، فلما علمت نايس بذلك وعدته باللقاء ليلا قبل الرحيل . . والتقى العاشقان فى سكون الليل ، ثم مضيا كعادتهما صوب شجرة الزيتون وتقدم فردريك نحو الشجرة التى ارتويا تحت ظلالها من ينبوع الحب ، ولكن نايس جذبته من ذراعه بعيداً وقالت له : لا لا . . ليس هنا . .

سألها هو : لماذا ياعزيزتى . . ؟

قالت : بعد سقوط أمطار غزيرة كالتى سقطت بالأمس تكون الصخور عرضة للانهيار . . ثم أردفت : فى الشتاء الماضى سقطت صخرة ضخمة فى هذا المكان . .

تراجعا ، ثم مضيا فجلسا تحت شجرة زيتون أخرى . . كانت آخر ليلة يلتقيان فيها . . كانت نايس مكتئبة حزينة ، ولم يلبث هذا الحزن الكامن أن تساقط من

عينيها دموعاً غزيرة ، ومن ثم فقد أخلدت الى الصمت ، ومضى فردريك يعاتبها على هذا الانقلاب الأخير الذى حول عاطفتها نحوه من الجموح والشدة الى هذا البرود العاطفى بالرزانة والوقار ، ولكنها ضمته الى صدرها فى عنف وقالت :

ـ لا . . لاتقل هذا . . إنى أحبك حباً هائلا طاغياً جباراً ، ولكن أنت ترى أنى مريضة ومع هذا سوف ترحل . . آه ياإلهى . . سوف ترحل . .

حاول فردريك أن يبعث فى نفسها شيئاً من الهدوء ، وأن يرسل فى شعاب قلبها شعاعاً من الضوء . . قال لها : سوف أعود لرؤيتك ياحبيبتى من حين الى حين ، وسوف أقبل فى الخريف فأقضى معك شهرين . .

ولكنها لم تنصت لقوله . . هزت رأسها فى يأس وشجن كأنها تأسف على فقدان شىء عزيز ، كانت تشعر شعوراً عميقاً أن هذه هى النهاية . . .

وظلا صامتين يملؤهما سكون عميق حائر . . يرسلان النظر الى البحر القاتم الساكن والى مرسيليا النائية البعيدة ، والى الفنار بنوره الخافت المرتعش الذى يبدو باهتاً حزيناً كأنه يسيل شجناً ولوعة . . ولما أوشكا أن يفترقا ، وتعانقا يتبادلان قبلات الوداع كانت الفتاة مثلجة الجسد وهى ترتعد كزهرة رقيقة يعصف بها الإعصار . . وعاد فردريك الى غرفته ، ولكنه لم يستطع الرقاد ، فقد أبى النوم أن يزور جفنيه ، فمضى يقتل وقته بالقراءة حتى أشرق الفجر بنوره الوردى . .

ومضى الى النافذة يستنشق النسيم حين أقبل الأب ميكولين ماراً فى طريقه الى البحر فلما رآه هذا رفع وجهه وحياه ثم قال :

ـ ألا ترغب فى الذهاب معى الى الصيد ياسيد فردريك ؟

أجاب فردريك : كلا أيها الأب ميكولين . . لقد قضيت الليلة مسهداً ولست أقوى على الذهاب

ومضى الرجل فى طريقه وتبعه الخطى . . كان يجب عليه أن يهبط تحت الصخور . ليأتى بالقارب من تحت شجرة الزيتون المهجورة ، وظل فردريك ينظر إلى الرجل حتى اختفى ثم وقع بصره على توان الأحدب ، وهو يعمل فى الأرض الى جانب شجرة الزيتون ، فأسه فى يده وهو يصلح المجارى الضيقة التى هدمتها الأمطار . .

مضى فردريك داخل غرفته ليأخذ لفافة ويشعلها ، ولما عاد الى مكانه من النافذة سمع صوتا شبيها هائلا ، فمضى مسرعا ليشهد ماحدث . .

كان هذا صوت سقوط صخرة ضخمة ، وقد رأى توان الذى أنقذ نفسه بتعلقه بالفأس فى حجر بارز من الصخور ، أما شجرة الزيتون المهجورة فقد سقطت فى البحر ثم رأى نايس وهى ترقب ماحدث ، وقد وقفت ممسكة بذراعيها المتصلبتين سور الشرفة كأنها تمثال من الصخر ، وما أن رأته حتى صرخت قائلة (أبى . . أبى . .)

بعد ساعة وجدوا ميكولين جثة هامدة ، قد قتلته الصخرة المنهارة ، فقد كان توان يعمل فى تنظيف المجارى فانهارت الهضبة . . بكت الأم ميكولين كثيراً ، ومضت نايس تشيع اباها الى مقره الأخير ، ساهمة واجمة وقد جف الدمع فى مقلتيها . .

وبعد هذا الحادث بيومين قررت مدام روستند الرحيل الى اكس ، وكان فردريك مطمئناً لهذا الرحيل ، فقد تلاشى هذا الشغف الذى كان يفعم نفسه ، وأدرك أن حبه لنايس قد بدأ يتوارى فى أعماق نفسه ، كما تتوارى الشمس الغاربة فى أعماق الأفق القصى . .

وفى إكس قضى فردريك شتاءً جميلا فقد استأجر غرفة فى الضواحى جعلها وكراً لشبابه ومجونه ، وكان يأتى بالنساء الجميلات من مرسيليا ، فيختلس معهن اللحظات السعيدة ، وكان يرجو لو تمضى حيـــاته وتتلاحق أيامه على هذه الوتيرة المفعمة بالمتعة والمجون . .

. . .

فى صباح عيد الفصح ، أقبل مسيو روستند يدعو فردريك للذهاب معه الى الضيعة

فقد كان يجب عليه أن يمضى الى هناك ، ولكن الفتى اختلق عذراً ولم يذهب معه . . وبلما عاد المحامى من زيارة ضيعته ، وانضم عقد الأسرة إبان تناول الغداء قال :

— سوف تتزوج نابيس . .

قال فردريك معقباً : أحقاً . .

وأردف مسيو روستند : ألا تظنون بمن هى ستتزوج . . ؟

وران عليهم الصمت برهة . . لم يستطع أحد أن يتكهن بذلك . . قال مسيو روستند :

— سوف تتزوج نابيس من توان الأحدب ، وسوف يوالى هو زراعة الضيعة التى يقوم بالعمل فيها منذ مات الأب ميكولين . .

ثم أردف : والذى أدهشنى حقاً أننى لم أعرف نابيس من أول وهلة . . . لقد تغيرت المسكينة كثيراً ، أصبحت نحيلة القوام ، شاحبة المحيا ، غائرة العينين ، كأنها قد تخطت أعوام الشباب منذ بعيد . . شد ما كانت هذه الفتاة جميلة . .

وأشاح فردريك بوجهه ، وهو يأكل شريحة من اللحم المشوى . . ! !

المصباح

(صورة من الحياة)

رأيتها آخر مرة منذ عامين تقريبا . . وكان الوقت غروبا ، فحتها وأنا ماضٍ فى طريقى مسرع الخطى . . كانت قد جلست على رصيف الطريق وقد وضعت إلى جوارها حملها الثقيل . .

مررت بها عابراً . . ولما خلفتها ورائى بخطوات عاد يلوح لى محياها الشاحب المغضن ، تحيط به هالة من شعرها الأبيض وتراءت لى فى جلستها الهادئة وهى تلهث من فرط حملها الثقيل ، الذى كانت تحمله دائما على رأسها حتى إذا ناءت بحمله آوت إلى ناحية من الطريق ، فألقته جانبا ثم جلست تستريح . . وهكذا كنت أراها دائما . . فى الصباح أحيانا وفى الغروب أحيانا . . تارة وهى ماضية الى دكانها فى الصباح وتارة فى أوبتها منه عند الغروب . . كانت تحمل دائما على رأسها صندوقا خشبيا يحوى ما تحتاج اليه فى يومها من طعام وشراب ، ومشعل الغاز الذى كانت تطهى عليه طعامها أو تصنع على لهبه قهوتها ، ثم لحاف ممزق حائل اللون ، تلتمس عليه بعض الراحة وقت الظهيرة . .

وكان لا بد أن تحمل هذا الصندوق الثقيل فى الصباح وتعود به فى المساء ، فقد

كانت تحتاج لما يحويه من متاع وطعام فى نومها وعشائها حين تأوى الى غرفتها الضيقة التى تسكنها على مسيرة نصف ساعة بالأقدام من دكانها والتى كانت تدفع عشرين قرشاً أجرة لها فى الشهر . .

كانت هذه المرة فى الثمانين من عمرها . . قصيرة القامة ، محدودبة الظهر قليلا ، نحيلة الجسد ممتقعة الوجه . . كانت وحيدة من الأبناء ولكن كان لها حفدة كثيرون ، وقد آثرت ألا تعيش عالة ثقيلة على أحفادها . . البقية الباقية من أسرتها الفانية ، فاستأجرت دكاناً صغيراً بجوار مدرسة إلزامية للبنات ، كانت تنفق فيه طيلة نهارها . تجىء فى الصباح ، فتفرش حصيرتها وتلقى عليها متاعها . . وفى ناحية من هذا الحصير تجلس وقد وضعت أمامها صناديق صغيرة من الخشب تحوى أصنافاً مختلفة من الحلوى تبيعها لفتيات المدرسة وصبيان الحى . .

وفى دنياها هذه المحدودة الضيقة المظلمة ، عاشت أعواما طويلة تربو على العشرة ليلها فى غرفتها ونهارها فى دكانها . . ليلها فى وحدة موحشة مضنية ، ونهارها بين هؤلاء الأطفال . . تبيعهم من حلواها ، وتهبهم من حنانها . .

لقد جمعت المسكينة كل تافه رخيص فى الحياة لتبيعه ، وأخذت أتفه نقود فى الدنيا نظيره !

وكان أثمن ماتملكه فى الحياة مشعل غاز ولحاف ووسادة ! !

. . .

لقد كان لها يوماً ما زوجاً وأسرة . . كان ذلك من أعوام بعيدة . . بعيدة جداً ولكن الأيام لم تبق لها من هذه الأسرة شيئاً . . لقد رحل الزوج الى حيث يرحل الأحياء جميعاً الى غير أوبة ، وهكذا رحلت شقيقاتها اللاتى كن لها فى الحياة . .

لقد رحلوا جميعاً ، وخلفوها لتمضى بقية رحلتها . . وحيدة بلاعون من مال أو ولد

إنها لتذكر ماضيها . . وتحن الى أيام صباها وشبابها . وحين يفيض بها الشجن وتوقظ الذكريات مشاعرها الخامدة ، تنحدر على خديها الغائرين قطرات من الدمع تتوارى فى غضون محياها . .

. . .

قلت لها يوماً :

— لماذا لاترحمين شيخوختك هذه المتهالكة الفانية ، وتأوين الى دار أحد أحفادك فتستريحين من هذا العناء المتصل . .

قالت فى هدوء وايمان عميق وفهم لحقائق الحياة :

— يابنى . . لماذا أكون عبئاً ثقيلا على غيرى . . إن أحفادى لهم زوجات وأولاد . . هم أحق منى بما أنا له من طعام وكساء . . ثم إن بى بقية من قوة تعينى على كسب قوتى بنفسى دون ماحاجة لأحد

. . .

هل جاء ذوى قرباها ليشيعوا جسدها إلى مقره الأخير أم جاءوا لينقبوا فى غرفتها عما تملك ويبحثوا عما ادخرت من نقود ؟ ! !

كل ماحدث أن البائعة المسكينة مرضت ذات يوم ، ورقدت فى غرفتها ، ولم تستطع الذهاب الى دكانها كما كانت تفعل ، وأرسلت تدعو أحد أحفادها . . تشكو اليه مرضها ثم فتحت كيس نقودها وأعطته أربعون قرشاً ليحضر لها طبيباً يعودها ؛ فإنها تحس دبيب الموت فى أوصالها . .

وجاء الطبيب ليقول : إنها ليست مريضة . . إنها الشيخوخة . .

لقد قضت المسكينة كل ما كتب لها فى لوح القدر . . وآن أخيراً أن تسقط ورقتها الذابلة من شجرة الحياة . .

وجاء أحفادها .. والتفوا حول فراشها .. حول جسدها الملقى على اللحاف الحائل الممزق فى ركن من أركان الغرفة . ثم مضوا ينقبون فى الصناديق الخشبية وفى قطن اللحاف وتحت الوسادة علهم يعثرون على ماقد ادخرت فى حياتها من نقود .. !!

وكان ماخلفته بعد رحيلها .. الثروة التى جمعتها من دنياها .. طيلة عمرها .. هى صفيحة غاز وأقة سكر وأربعة جنيهات وجدوها فى (حجاب) معلق فى عنقها ، وعدة قروش ومليمات فى كيس نقودها .. وبهذه الجنيهات إشتروا كفناً لها ودفعوا أجر الحانوتى والفقيه .. وشيعوها الى مقرها الأخير ..

وفى الصباح فتحوا دكانها ، وحملوا صناديق الحلوى ، وعادوا بها إلى بيوتهم .. !!!

. . .

إن الراحلة المسكينة لم تكلف أحداً شيئا .. لافى حياتها ولا فى مماتها ..

وتقاسم أحفادها صناديق الحلوى .. الكبار والصغار .. من رجال ونساء وأطفال .. ! !

وكان الأطفال يلتهمون الحلوى .. وهم يتضاحكون

كانت فى هذه الحلوى فلسفة الحياة .. كانت تصور غروباً ينحدر فى التراب وفجراً يبزغ من المجهول .. تاريخ ينتهى ، وتاريخ يبدأ .. امرأة ودعت الحياة وأطفالا يدرجون نحو الحياة وهم لايعلمون مايأتى به الغد المجهول .. ؟!

الشاعر

قلت له لما رأيته بعد غياب سنين :

ـ أوه . . يا للهارب الكبير ، لله أنت حى ؟!

ـ يخطئون ويقولون ذلك . . !

ـ ولياليك ؟ !

ـ لست أذكر من أضغاثها حلماً !

ـ وماذا تعمل الآن ؟

ـ للآخرة وأحياناً للشيطان . .

ـ مابالك شارداً مطرقاً ، يخيل إلى أنك تهذى !

ـ وهل نحن إلا دائماً نهذى . .

ـ تعال تعال ، هناك فى هذا الحان ينسون ، ولكأنى بك فى حاجة إلى بعض النسيان . .

ـ أنا . . ؟ مطلقاً . . لقد نسيت كل شىء وهم فى ضلالهم يحترقون على لهب الذكرى ، وبخواطرهم المريضة يتحايلون على النسيان . . ! ؟

ـ مل بنا ياصاح . . هيا يابن الصدفة فكم أنا فى حاجة إلى رفيق عظيم . .

ومالا إلى الحان فى صمت . . واقتعدا مقعدين متقابلين وعلى ثغر أحدهما بسمة هناء وفى اطراقة الآخر قصيدة من الشعر . .

. . .

الليل فى الخارج مظلم كئيب والهدوء عميق طلق ، وكم هى قاسية موحشة ليالى الشتاء

والجميع إلى مضاجعهم أووا إلا كهنة الخطيئة في رحابها يصلون وهم فيها أناشيد، والكؤوس ملأى بالرحيق الذهبي تتقارع بين نوعين من الأيدي تتراوح بين الخشونة والرقة . . !

— وهل كنت تخفي عني سراً بالله ماذا يزعجك . . ؟ !

— لا شيء . . ! ! هنالك خواطر تبعث البرودة في ليالي الصيف والرعدة في الجسد والدمع في المحاجر وقد لا نصل الى حقيقة كنهها مع ادماننا في آصالها الفكر ؟!

— خبرني . . كيف حال أبيك . . ؟

— ذهب الى غير عودة هنالك حيث يعيشون من قتلتهم خطايا الماضي . .

— أوه رحمة الله على جثمانه وأمك . . ؟

— لعله ناداها من مرقده فما كانت الا كما عهدها مجيبة للنداء .

— مسكين ياصديق الطفولة شد ما أسفت على بأسائك . . عزائي وعزاؤك امرأة جميلة قدها ممشوق وعيونها الزرق كالبحيرة وشعرها الأشقر يرسل وميضة المذهب على جبينها الناصع العاجي وعلى وجنتيها الورديتين . . هل أخطأت في أوصافها ؟ ! أنا لا زلت أذكر تلك الأوصاف التي طالما كنت تملأ بها حديث أماسينا . . كيف حالها ؟ !

— ماذا تقول . . ؟ !

— فتاتك . .

— آه ، حجبوا عني في دنياها كل فجر ، حين أدركوا أن ليالي لا يلوح منها بريق أضواء الذهب ، فمزقت ما أوحتني إياه من قصائد . . ؟ !

— أوه ، إخالك تبالغ ، هذا كثير . . ! !

— وفي ليالي الشتاء أطلت التفكير فيها ، فما خرجت منها إلا بلاذع الصقيع ، أنظر ، ألا ترى يدي ترتعش ، كذلك قلبي مزقت أوتاره يداً غاشمة . . ؟ ! أتركني أذهب ، فقد احتبست في جنباته روائع النغم . .

— إجلس بربك ، إلى أين ؟

— إلى حيث أطلقها من اسارها العتيق في دنيا تضل في ظلماتها طيور الليل . .

— خل هذا فيه الشفاء . .

— مالك الليلة ترقب فى الليالى تهجداتنا . . ؟ !

— ألست تريد أن تنسى ؟

— أنسى ماذا . . ؟

— همومك وآلامك . .

— أى هموم ؟ ! أنا لا أذكر شيئاً ، ماذا كنت أقول ؟ !

— رباه ، وما هذى الثياب القديمة ، وما هذا الحذاء البالى . . ؟ !

— بقايا بواكير سعادة شابة ، فى ريعانها ماتت أحلامها . . !

— أنت ضيفى الليلة . .

— أنا ؟ ! بل ذكرى عابرة ، اجرع كأسك ياصاح وأشح بوجهك عنى حتى أختفى ، وأنسى كل شىء . .

— محال ، أين تسكن ؟

— ياصديقى الطيب ان للحظة الجافة فى كل عام حقول فسيحة ؟ !

— لست أفهم . . ؟

— أنظر . . العالم يتلخص فى قصيدة أمتلكها وحدى . . أنصت قليلا :

فى النهار الشمس تبعث الدفء فى الجسد ، والكسل والملل والراحة ثلاثة بنات للدفء العجوز ! ! وأنا أنام دائما مع الدفء ، فبالنهار أغمض ياعيونى الكسيرة ، والنائمون من هفواتهم لا يخجلون ، فأنى كنت أغمض ياعيونى ، ويا أهدابى كأرجل العنكب ، أقبض على الدموع لحظات . .

. . .

وعلى دقات ناقوس المساء ، تحين ساعة العمل ، فانطلق فى الطرقات ضالا مع الريح أجمع أشتات الوحى فهنالك غصن وردة قطفتها حسناء يتقلص ويموت ، والوردة على صدرها تبعث بأنفاسها الأخيرة عطرة متقطعة . . وهناك عذارى نواعس فى خدورهن المتضوعة بالعبير يحلمن بالحبيب ، وبالعربات الفاخرة ، وهناك عشاق ينتظرون الغد ، ورجال يحلمون بخرافات المجد والخلود ، ويقطعون الليل ساهدين . .

. . .

(١) « لا ريب أننا نحب الحياة وليس سبب ذلك لأننا تعودنا الحياة بل السبب فى أننا تعودنا حب الحياة . . ان فى الحب شيئا من الجنون ولكن فى الجنون شيئا من الحكمة وأنا نفسى الناقق الى الحياة يتراءى لى أن خير من يدرك السعادة انما هى الفراشات وكرات الصابون الفارغة ومن يشبهها من الناس . . »

. . .

« فتشت فى كل مكان فما رأيت الا مشترين يقلبون السلع وعيونهم تتدفق مكراً ولكن أمكر هؤلاء الناس لا يتوصل فى آخر الأمر إلا الى ابتياع مرة يدسها فى جلبابه إن ما تدعونه عشقا انما هو جنون يتتالى نوبة بعد نوبة حتى يجىء زواجكم خاتما هذه الحماقات بالحماقة المستقرة الكبرى ؟ ! »

. . .

فى الفجر الطرقات خلوا من المارة وضوء النهار يحبو وفى أعذب الأحلام يعيش الناس وأعذب الأحلام نهايتها . . والنساء يخرجون الى حيث يحرثون الأرض لمن يجنون والكناسون يجمعون بقايا سفلات الليل ويأكلون فى نهم وأصحاب الذهب على الوسائد الحريرية لتوهم راقدون وأنا كالطائر طليق ليس لى مأوى ولا مضجع . . . أغمضى ياجفونى الى الأبد ! !

قلت له :

أقسم أنك ضيفى الليلة . .

قال : سيحاسبك الله حسابا عسيراً ! !

وانطلق مسرع الخطى . . وابتلعه ظلام الليل . .

. . .

وضمنى فراشى لليلة طويلة حزينة تظلنى فيها خيالات قاسية مريرة ويرن فى أذنى صدى صوت صديقى الشاعر وهو يهمس : ويا أهدابى كأرجل العنكب أقبضى على الدموع لحظات . .

---

(١) المقطوعات التى بين الأقواس من كتاب (هكذا تكلم زرادشت) للفيلسوف العظيم (فردريك نيتشه)

وحين طرق الباقلة أول الشباح من أشعة الفجر المرتعشة انحدرت من عيني دمعة.. إنه ولا شك الآن يقطع الطرقات وينهال عليه الصقيع وتغطيه من الندى طبقة رقيقة فيبدو كشجرة من شعيرات الورد تبدو من خلال الضباب ...!

. . .

وبحثت عنه كثيراً . . والتقيت به أخيراً . . ابتدرني هاتفا :

ـــ أنظر . . ألا ترى أنه جميل هذا الحذاء الجديد الذي أحتذيه ؟

ـــ من أين أتيت به ؟

ـــ إن له قصة طويلة . .

ـــ إلى بها يا صاح . .

ـــ أتعرف الشاعر المشهور « . . . » ؟

ـــ ومن ذا الذي يجهله في عالمنا هذا ، ماله ؟

ـــ اشترى قصيدة من قصائدي بهذا الحذاء ، إنه حذاء لا بأس به ، وهو ليس قديما جداً . . لقد أخذ على قسما أن أنساها ، وأنا الآن لا أذكر من كلماتها حرفا . . إنه أقسم لي أن بين طياتها يجثم له المجد ، وأقسم أنها ما خلقت إلا لشاعر عظيم من أمثاله . . يا للسعادة يا حذائي الجديد ! !

وضحك في بلاهة . . ! !

خيل إلي أن من وراء بسمته الممتقعة دموعا في مآقيه تتألق ، وأن عينيه الغائرتين حفرتين بعيدتا الغور ، وأن وجهه النحيل هيكل باهت لحطام بال ، ومرت بعيني دمعة عابرة . .

هتف بي : ماذا . . أتبكي ؟

قلت : لا . . ولكن . .

قال : كن قويا شجاعا جميلا دائما ، فالحياة قوية جبارة . .

وخلفني واجما . . وانطلق مسرع الخطى ، وابتلعه ظلام الليل . .

« . . والآن أيها القارىء العزيز ، لقد قرأت ، وقد تكون أعجبت أو تكون سخطت . . أما إن كنت قد أعجبت ، وتغلغلت سطور هذا الكتاب فى أعماق نفسك ، فلا ريب أنك ستتخيل شبحاً باهتاً لصورة المؤلف ، وتهيم فى تيه مبهم من التفكير ، فتظل تسائل نفسك : ترى أعجوزاً هو . . أم شاباً ؟ آدميا هو . . أم جميلا ؟ وحتى لا أكون سبباً فى أن أدفعك إلى بيداء قاحلة من التفكير تسعى وراء سراب غامض أهديك صورتى . . وشكرى . . !

أما الذى لم يرقه هذا الكتاب ، فليتقبل صورتى أيضاً ، وله تحيتى ، وليذكر أن هذه محاولة متواضعة لسرد تجارب صادفتنى فى حياتى ، فإن كانت هذه الصحائف لم تعجبه ، فقد تحوز رضاه يوماً صحائف أخرى للمؤلف فى سبيلها للظهور ، وقد يحاول حين ذاك أن يتخيل صورة كاتبها . . . !

لقد تفاهمنا إذن . . فإلى هذا . . وذاك . .

صورتى المتواضعة . . !

فهرس

	صفحة
من كتاب فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمود أبو العيون الى المؤلف ...	٣
اهداء الكتاب	٤
أجساد للبيع	٥
أضواء عيد الميلاد	١٢
الشباب والمال	١٨
أصنام	٢٨
شارع فؤاد	٣٥
على الهاوية	٤٨
قصة من لبنان	٥٦
فى الظلام	٦١
فى الطريق إلى المجد	٧٢
غروب الحب	٧٧
أبا تمة	١٠٠
الشاعر	١٠٤
صورة المؤلف	١٠٩

تمت الطبعة الأولى فى ١٦ مارس سنة ١٩٤٧

كتب المؤلف القادمة

(تصدر قريباً)

حصاد الربيع

نساء ساقطات

أناشيد محترقة

صدر للمؤلف

أرواح محمومة

مجموعة قصص وقصائد

مارس سنة ١٩٤٥ (نفد)

سعيد رمان

١٠٠ شارع محطة منشية الصدر

حدائق القبة . مصر